بنت الشغّالة

رواية

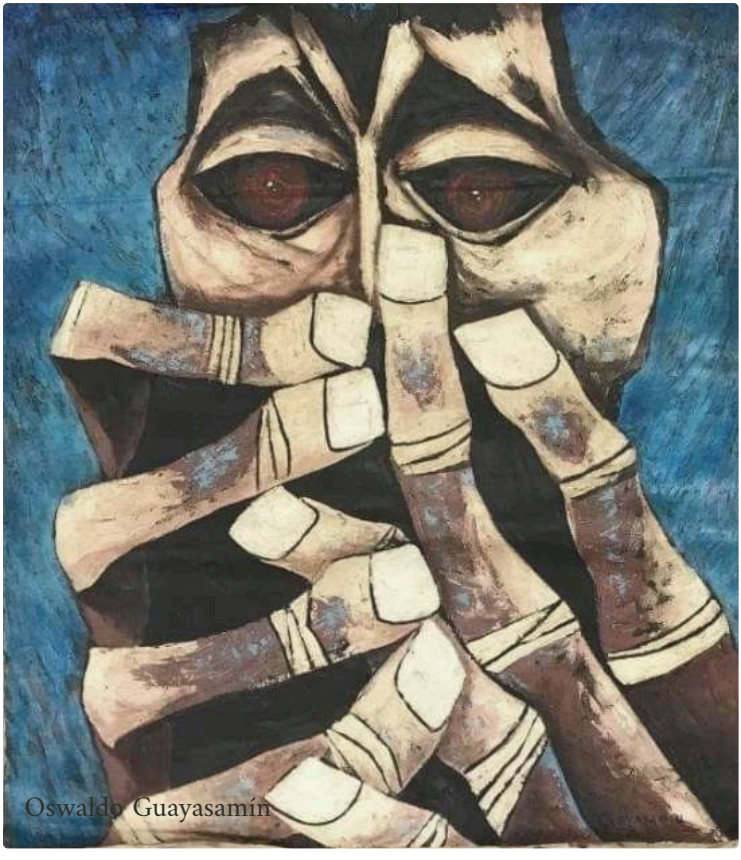

alayedh.rakan

بنت الشغّالة

رواية

alayedh.rakan

© جميع الحقوق محفوظة.

2026

«...لن أبرح أنا مكاني، سأموت هنا. اذهب أنت وابتسام، الحياة تنتظركما، لا يجب بحال أن تظل هذه الجرائم طي الكتمان، كأن لم تقع ولم تحصل. اهربوا وأخبروا العالم بكل ما جرى وما يجري. أنا أنتظر لقاء ربي...»

دلال

«...ولكن طريق الحق والحقيقة هكذا؛ لم يكن يومًا معبّدًا بالورود. وأنا مستعد لترك كل شيء هنا من أجل رفع كلمة الحق وكشف هؤلاء المجرمين...»

أحمد

إهداء

إلى روح كل من

ابتسام،

فاطمة،

منال،

دلال،

وكل الضحايا.

(1)

كان اليوم الثاني من الشهر السادس (يونيو) لعام ألفين وأحد عشر لميلاد المسيح، الموافق لليوم الأخير من شهر جمادى الآخرة لعام ألف وأربعمائة واثنين وثلاثين لهجرة محمد، الرسول الأمين.

الجو قائظ، كنارٍ تَلَظّى، الناس يخرجون من منازلهم يسيرون نحو وجهة واحدة من كل الجهات. لشدة الحرارة وغزارة العرق ترى أجسادهم من خلف ثيابهم البيضاء. التصقت أجسادهم بثيابهم حتى صارت وجلودهم طبقةً واحدة.

يرتفع الآن صوت النداء الثاني للصلاة.. إنه يوم الجمعة.. الحي يعجّ بالناس المتوجهين للصلاة، يسيرون بتؤدة، بتثاقل. يواصلون سيرهم دون أن يلتفت بعضهم إلى بعض، كلٌّ مشغولٌ بهمِّ تأدية الصلاة في وقتها والاستماع للخطبة قبلها.

عند مدخل الجامع الكبير ترى قاصديه من كل حدبٍ وصوب، يبغون الأجر والمثوبة، ومنهم المُكرَه على ذلك، ومنهم المُعتاد غير مختار.

تحيط بالجامع سورٌ حديديةٌ طولها نصف متر، ولها رؤوسٌ مدببة، وباحةٌ واسعة أمامه يفترش الناس فيها فرشهم وسجّاداتهم

إذا امتلأ الجامع بالمصلين في أيام الجمعة. كما تحيط بالمسجد الكبير من كل الجهات البيوت والمحال الكثيرة، ومساجد صغيرة أخرى في كل شارع.

خرج أحمد متوجهًا هو الآخر مع إخوته ووالده إلى الجامع ليصلّوا الجمعة. أحمد أحد سكان هذا الحي، هو الأكبر بين إخوته، وُلِد وعاش في هذه المدينة الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، ذات المناخ الحار دائمًا، شتاءً وصيفًا. لم يغادرها قط، تربّى في هذا الحي الممتلئ بالقاطنين فيه، يعرف بعضهم بعضًا.

يواصل السائرون سيرهم نحو الجامع الكبير، يسيرون برؤوس مطأطأة، بخشوعٍ متكلَّف، وتثاقلٍ واضح، ووجوهٍ منتفخةٍ من كثرة النوم.. مرّوا بالجثة الملقاة على رصيف المنزل المقابل للجامع. كانوا قد شهدوا ما حدث قبيل الفجر، لم يمسسها أحد، لم يلتفت إليها أحد، أو التفتوا ورأوها ولكن الصلاة في نظرهم أهم، أو حياتهم في الحقيقة هي الأهم، يخشون أن يتورّطوا مع الأمير.

لم يدرِ أحمد بما حدث، ولا جثةَ من هذه! بيته أبعد من الشارع الذي فيه الجامع، لم يشهد ما فعله الأمير أمام سكان الحي فجر اليوم.

هرع أحمد رأسًا نحو الجثة، لم يتمالك نفسه، حاول في البدء والده إيقافه لكن دون جدوى: «يا بني لا علاقة لنا بها، دعها، ستورّطنا، الحكومة أبخص، هي من ستتولى أمرها».

أزاح أحمد يدي والده عنه وركض نحوها. فتاة في العشرين من عمرها، ميتة، مقتولة.. وملقاة على بطنها، مغطّى وجهها، ومضمومة داخل عباءتها، لا ترتدي شيئًا تحتها، كما خلقها ربها.

توقف بعض السائرين، ثلاثة أو أربعة، عندما رأوا أحمد يقلّب الجثة ويصيح بأعلى صوته: «يا عباد الله، يا عباد الله، يا عباد الله، هنا جثة، جثة امرأة مقتولة، هل من مجيب؟ هل تسمعونني؟ فليتصل أحدكم بالنجدة، بسرعة، بسرعة»، يصيح، ويسأل السائرين: «هل منكم طبيب؟ هل من مجيب؟! فلتفعلوا شيئًا». كشف عن وجهها المضرّج بالدماء، فإذا بها هي.. لم يصدق ما رأته عيناه. علا صياحه، تحول إلى نواح، تقطّع صوته، لم يحتمل عِظَمَ وفظاعةَ الموقف. لقد قُتل معها تلك اللحظة، انتهى كل شيء قد رسمه.

اختلطت قطرات العرق المتساقطة بدموعه المنهمرة، ثم هوت على وجه ابتسام، امتزجت معًا: دموعٌ وعرقٌ ودماءٌ وعويلٌ. لا تكفي الكلمات لوصف الحدث. «يا عالم، يا عالم، تعالوا».

بضعة أشخاص التفّوا حولهما مع الثلاثة الآخرين، بقوا ينظرون إلى الجثة وأحمد الذي يصرخ بجانبها، دون أن يحرّك أحدهم ساكنًا؛ موتى هم الآخرون. قال أحدهم: «اتركها حتى تأتي سيارةُ الإسعاف».

لم يُفلتها أحمد، ظلّ محتضنًا جثتها ويصرخ، لا يزال هنالك بقية أمل في أن تكون على قيد الحياة، يُمنّي النفس بما تشتهي. لقد ماتت، وشبعت موتًا.

وصلت سيارة الإسعاف بعد انتظار ساعةٍ كاملةٍ أو أكثر.. أخذها المسعفون، اتجهوا بها إلى المستشفى، كان قريبًا من الحي، أدخلوها إلى قسم الطوارئ، فحصوها، لا أمل. مضت عشرُ ساعاتٍ منذ توقفت كل أعضاء جسدها.

لم يُصلِّ أحمد الجمعةَ مع المصلين، صلّى صلاته ضامًّا جثةَ ابتسام إليه، ركض عائدًا إلى البيت، ركب سيارته واتجه على الفور نحو المستشفى؛ قالوا له فور وصوله: «لقد ماتت.. هل تعرف الميتة؟ هل تعرف أحدًا من أقاربها؟»

يقول لهم مفجوعًا مرتعشا ودموعه تنهمر: «ماتت؟ ماتت؟! لا، لم تمت، أرجوكم تأكدوا، أنا وجدتها لا تزال تنبض»، يردد ذلك متوهّمًا.

يمسكه الأطباء: «لقد ماتت، هل تعرفها؟»

أحمد: «أعرفها، نعم، أعرفها... وأعرف دلال، حتمًا ستسأل عنها. ابنتها».

«إذن ضعوها في ثلاجة الموتى لثلاثة أيام، فإن لم يسأل عنها أحد... فستُدفن في مقبرة المجهولين»، قاله مسؤول المستشفى غير مبالٍ.

فقد أحمد عقله، لم يصدق ما سمعه لتوّه ورآه... سقط على الأرض مغشياً عليه... لم يستيقظ إلا في غرفة الإنعاش بعد غيبوبة استمرت أسبوعين متواصلين.

(2)

لطالما أحبت الحياة منذ أن وعت على الدنيا، على عكس الحياة نفسها التي لم تتحنّن عليها. اسمها ابتسام، وُلدت بعد مخاض عسير، انفصل والداها قبل مجيئها إلى عالمنا بشهرين؛ لم تعد أمها قادرة على الصبر أكثر، ملّ الصبر منها. لم تجد لها مأوى يسترها. رفض الأهل استقبالها، وانقطع تواصلها معهم منذ ردحٍ من الزمن. اضطرتها الظروف القاهرة إلى البحث عن صديقةٍ قديمة كانت قد تعرّفت عليها في المرحلة الإعدادية، ولم تلتقِ بها منذ تلك الفترة وحتى هذه اللحظة العصيبة.

نسيتْ وجهَها، لا تزالُ تذكرُ اسمَها، والحيّ الذي كانت تعيشُ فيه، في نفسِ المدينة (جدة). خرجتْ إلى الشارع وحدها تجرُّ حقيبتَها، ذلك كلّ ما كان بحوزتِها، حقيبةٌ من الحجم المتوسط، كانت قد اشترتْها ليومِ زواجِها. بطنُها منتفخةٌ، في الشهرِ السابعِ من حملِها العسير.. يدٌ تجرُّ الحقيبةَ، والأخرى تلوِّحُ بها للمارّة تحت لهيبِ الشمسِ الحارقةِ التي تتوسطُ السماءَ، كما هي عادةُ شمس تلك المدينة.

تقفُ سيارةُ أجرةٍ، أعطتْ للسائقِ العنوانَ، عرفه، قال لها: «اركبي»... وصلتْ إلى الحي، توقف السائقُ عند بدايتِه، «هنا؟»

يسألُها! «نعم، توقف». أعطتْه كلَّ ما كان في محفظتِها. ليس معها سوى بضعِ ريالاتٍ. رأفَ السائقُ بحالِها، رفض أن يأخذَ المبلغَ، «الله يسهل عليكِ يا أختي»، قال لها.. ورحل.

ظلَّت تسيرُ في الحيِّ تُحاولُ تذكُّرَ منزلِ صديقةِ المدرسةِ سمر، تسألُ هنا وهناك، تطرقُ الأبوابَ واحدًا تلوَ الآخر.. لا أحدَ يعرِفُها، «مَن سمر؟ لا نعرِفُها» يقولون لها. قرصُ الشمسِ اختفى من وسطِ السماءِ ليظهرَ في مكانٍ آخرَ من الأرض، توشكُ الدنيا على الغروب. يكثرُ في تلك المنطقةِ المدمنون في ساعاتِ الليلِ المتأخرة، ليست آمنة. خارتْ قواها، تصيح، لعنت اليومَ الذي وُلِدَتْ فيه، كادت تُلقي بنفسِها وطفلتِها التي في بطنِها وسطَ الطريق وتنهي كل شيء. لم تكن تودُّ المجيءَ إلى هذه الدنيا، هم اختاروا بالنيابةِ عنها، ولكن المؤكَّدَ أنها لم تخترْ هي ذلك.

قعدتْ أمامَ بابِ مسجدِ الحيِّ. تنظرُ إلى المصلين؛ يدخلون ويخرجون، ألقى عليها البعضُ بفتاتٍ من المال. ريالات لا تكفي لشراءِ وجبةِ طعامٍ تُقيمُ صلبها وتُغذِّي بها الجنينَ الذي في بطنِها. تئنُّ من شدة الجوعِ وتيه المجهول، متشحة بالسواد، لا يُرى منها سوى عيناها. دخل وقتُ صلاةِ العشاء، صلَّى الناسُ وخرجوا، لم يلتفتْ إليها أحد، لم يُلقوا لها بالًا. تأخَّرَ الوقت، أغلق المسجدُ أبوابَه، طردها الحارسُ خارجَ باحةِ المسجد.

ظلَّت تسيرُ لوحدِها إلى مكانٍ لا تعرفُه، لا تدري أين هي ذاهبة، تسيرُ وعيناها تنهمرانِ بالدموع، دموعِ القهرِ، والألمِ، والوحدةِ، والعوزِ، وذلِّ الحاجة.. رأت دكانًا في آخرِ الحي، دخلتْ، اشترتْ قنينةَ ماءٍ باردة، شربتْ منها قليلًا، وبلّلت بالباقي نقابها، وجلستْ على عتبةِ الدكان وحيدة. لا أحدَ مهتمٌّ بها، لم يسألْها أحدٌ طوالَ اليوم عمّا إذا كانت بحاجةٍ إلى مساعدة. الرائحون والغادون كلٌّ منهم في طريقِه مشغولٌ بنفسه وهمومه، وكأنها ليست بشرًا تئنُّ أمامَهم!! انهارتْ، أُنهِكَ جسدها تمامًا، وسقطتْ على العتبةِ الجالسةِ عليها.

غلبها النعاس، الساعةُ تشيرُ إلى منتصفِ الليل. لم تجدْ بيتَ سمر، ولا تعرفُ أحدًا، ولا أقرباءَ لها، أو لها أقرباءُ، ولكن كأنْ لا وجودَ لهم. نامتْ.. الجوُّ كان حارًّا حتى في الليل.

استيقظتْ على أذانِ صلاةِ الفجر، تحاولُ أن تُحرِّكَ يدَها، قدمَها، رأسَها، ولكنْ عاجزةٌ، دونَ جدوى.. في تلك اللحظةِ مرَّ بها رجلٌ مُسنٌّ في السبعينَ من العمرِ ، ربما، لحيته طويلة، وجسده نحيل، ذاهبٌ إلى المسجد، أقبلَ صوبَها لحظةَ رآها، كان معه اثنانِ من أحفادِه. وجدوها مُغمًى عليها من شدةِ التعبِ، وثِقلِ الحمل، أخذها الرجلُ المُسنُّ وأحفادُه إلى منزلِه

حيث أهلُه وأبناؤُه. سقوها الماءَ، وأعدُّوا لها الطعام. بقيتْ عندهم ثلاثةَ أيامٍ حتى استطاعتْ الوقوف على قدميها مجددًا.

سألتهم عن بيتِ سمر، اكتشفتْ أنهم يعرفونها، ولكن قالوا إنَّها وعائلتَها قد انتقلوا من هذا الحيِّ ومن البلدِ كلِّها، «لقد هاجروا إلى بلدٍ بعيدةٍ منذ سنوات.. وبيتُهم مهجور، لم يسكنْه أحدٌ طوالَ هذه الفترة، وقد وضعوا مفاتيحَه عندنا، في حالِ احتجنا إليه أو مرَّ بنا عابرُ سبيلٍ انقطعتْ به السُّبل».. ثم سألوها: «هل تودِّين أن تبقي فيه حتى تتحسَّنَ ظروفُك وتلدي طفلكِ؟» «نعم، نعم، أرجوكم»، أجابتْهم دونَ تردُّد.

(3)

عاشت فاطمة لوحدها في بيت سمر الواسع المهجور، أنجبت ابتسام بعد شهرين من وصولها إلى هذا البيت، كان جيران سمر الذين أنقذوها يترددون عليها من الوقت إلى الآخر في بداية الأمر، يسألون عنها، يتفحصونها، ويعدون لها الطعام.

الليلة التي ولدت فيها ابتسام كانت الأصعب، لم تنم الليل كله. عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل حان موعد الولادة، لا تقوى على الحركة، تئن وحدها. اتصلتْ بجيرانها، ولكنهم كانوا نائمين، لم يرد على اتصالها أحد. اتصلت بالإسعاف، ولم يصلوا كعادتهم إلا بعد ساعتين. لم تستطع فتح الباب لهم، كانت بين الحياة والموت، خلعوه، أخذوها واتجهوا بها إلى غرفة التوليد على الفور. وما هي إلا ساعتان أخريان حتى جاءت ابتسام، التي ينتظرها هي الأخرى مشوار عصيب في هذه الحياة.

ظلت في المستشفى خمسة أيام بعد الولادة، ثم خرجت إلى بيتها، بيت سمر صديقة الطفولة. دفع جارها المسن فاتورة المستشفى. عاشت في ذلك البيت الفقر وأحلك الظروف لوحدها وطفلتها، كانت تضطر لتركها عند إحدى جاراتها

(دلال) طوال اليوم وتذهب للعمل في البيوت، حتى توفر لقمة العيش لها وطفلتها.

تعرضت للمضايقات والتحرش والاحتقار والاستغلال، وكانت عندما تبلغ عن أي من تلك الحالات لأقسام الشرطة يتجاهلونها، لا يأخذونها على محمل الجد. كانت الحياة قاسية معها، شاقة عليها، لم ترحمها أبدا، حتى أراحها الله منها بعد عمر منقوص، بعد عمر من العناء والإذلال وشظف العيش.

بعد أن طلّق والد ابتسام أمها وطردها من البيت، انقطع التواصل بينه وبينها. حاولت الاتصال عليه تلك الليلة عندما نامت على عتبة الدكان، ولكنه لم يرد. يقال بعد ذلك إنه هلك في حادث سيارة بعد أن طردها بيومين، ولا يعرف صحة ذلك الادعاء من عدمه حتى اليوم. لم تكن حياتها معه سهلة منذ البدء، أهلها باعوها، هو دفع لهم وهم رموها عليه. لم تختره، ولم ترغب به منذ البداية.

ثماني سنوات عاشتها معه لم تنجب خلالها له ذكرا يحمل اسمه كما كان يتمنى، إلا بعد هذه المدة، وكانت أنثى على غير ما يود. تزوج على فاطمة بعد سنتين، ثم تزوج على الثانية بعد سنتين ونصف. كان يهينها، يعنفها، ويغتصبها كل ليل، لا تدري إلى من تشكوه، لا سند لها. تصلي وتدعو عليه، لا حيلة لها. ثم بعد كل ذلك طردها دون أدنى مبالاة مع علمه بحملها. كان

اليوم الذي عرف فيه بأن الجنين أنثى أسوأ يوم في حياته. عندما بشّره الطبيب بذلك ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم.

لقد عانت فاطمة معه، عانت كثيرًا، طويلًا. أسكن معها زوجته الثانية، كان يجبر الزوجتين على النوم معه في سرير واحد، يغتصبهما سوية. كان شاذا، مدمنا، عربيدًا، لا يصلي ولا يصوم ولا يعرف عن الدين ولا منه شيئا، ولكنه مع ذلك يقول دائمًا ويردد «الدين حلل لي أربع»، هذا ما يعترف به وكل ما يعنيه ويعرفه من الدين، من الحياة ككل.

لم تعش فاطمة يومًا هانئًا معه، كانت حبيسة البيت لديه، يحرمها حتى من جيرانها والتعرف عليهم. أهلها لم يسألوا عنها منذ أن زوجوها له. لقد نسوها تمامًا، وهي بدورها نستهم. احتاجت إلى سند، لم يكونوا سندًا قط لها.

(4)

كانت طفولتها لا تقل قسوة عما عانته لاحقًا؛ لقد ولدت أنثى! ولهذا كان عليها دفع الثمن! لماذا جئت إلى الدنيا أنثى؟! هذا منطق البشر من حولها! ولأنها كانت أنثى، فقد كانت حبيسة المنزل منذ الولادة وحتى تزوجت، وحتى تموت.

لقد ذهبت إلى المدرسة، ولم تكمل دراستها. بعد الإعدادية منعوها، «هذا يكفي»، قالوا لها. وبدأوا في البحث عن عريس لها! لا يردون طارقا للباب! كل من طرق عليهم الباب زوجوه. كانت هي الثانية في الترتيب بين أخواتها، لديها ثلاث أخوات، هي الوسطى بينهن. وليس لها أخوة من الذكور.

تزوجت أختها الكبيرة هند بعمر 14 سنة، فحرمت من إكمال تعليمها هي أيضًا، ثم تزوجت فاطمة بعد ذلك بعمر 15 سنة. طرق خالد عليهم الباب. لم يكن معه أحد سوى الخاطب؛ تقدم بطلب يد فاطمة فبادره والدها على الفور، «مهرها 40 ألف ريال، يناسبك؟ وإلا فعد من حيث أتيت». رد خالد: «حاضر يا عم». فوافق أبوها حينها دون أدنى تردد. لم يسأل فاطمة، لا تعنيه موافقتها أو رفضها!! وهل لها أن ترفض أصلاً؟!

بعد أسبوع من تاريخ البيعة كان زواجها منه. لم تنل من مهرها ريالًا واحدًا، ولكنه أعطى للخاطب عمولته. الوالد هو صاحب البضاعة! هكذا يرى الأمور... ابنته ليست سوى سلعة يبيعها لأول قادر على الدفع، باعها... رحلت. لم يكن زواجًا بمعنى أن الناس فيه فرحوا وابتهجوا، كان أقرب إلى مجلس عزاء في الحقيقة، الكل عابس مبتئس، ساعة واحدة ثم انفض المجتمعون، وكانوا قلة، لم يحضره سوى عدد قليل جدًا، يعد على أصابع اليدين.

ذهبت معه، لم يتوقف سيلان دموعها ذلك الليل. بقاؤها مع أهلها عذاب، وذهابها مع هذا المشتري نحو المجهول، عذاب آخر. لم يسألوا عنه، ورغم ذلك حذّر والدها أحد الذين هم على علم بخالد بأنْ «تريث ولا تزوجه ابنتك، يقال إنه مدمن، وله سوابق وسجن مرتين أو أكثر في قضايا مخدرات وسرقة». لم يرق لأبو فاطمة كلامه، كان غير مبالٍ بكل ذلك، المهم بالنسبة له أن حصّل المبلغ المطلوب، والأهم أنه وجد من يحمل عنه «عاره» كما كان يردد.

ذهبت فاطمة مع خالد، لم تره إلا قبل أسبوع فقط في النظرة الشرعية؛ رجل غريب لا تعرف عنه شيئًا. ثم بعدها بأسبوع تم الزواج وأخذ المشتري بضاعته. لقد كانت محزونة، مقهورة، صغيرة لا تعي شيئًا، حرمت من إكمال دراستها، وظلت حبيسة

عند زوجها كما كانت عند أهلها، لا يطمئن عليها أحد. تتصل بها من وقت إلى الآخر أختها الكبيرة، تكبرها بعامين، ولكن خالد أمرها أن تكف عن الحديث على الهاتف معها.

تقوم فاطمة بأعمال المنزل ومنزل والدته المجاور لهم كل يوم. يخرج قبل طلوع الشمس ويعود بعد الظهر. كانت تلاحظ عليه سلوكيات غريبة، ويغضب بسرعة، ولا يتردد في ضربها على أتفه الأسباب. يتناول غداءه ثم يخرج مجددًا ولا يعود إلا بعد منتصف الليل. يعود مخمورًا، يترنح ويهذي، ويسب بأقذع الألفاظ. يوقظها من نومها، يضربها، ينزع عنها ملابسها، يمزقها، ثم يغتصبها، ولا يأبه لصراخها... لا مجيب لها.

ظلت على هذه الحال إلى أن طلّقها وطردها بعد أن تجرأت وردت عليه ذات مرة. رفضت أمره، فلكمها وصفعها وشد شعرها وظل يركلها في كل أنحاء جسدها، ويبصق عليها ويقذفها، ثم رمى بكلمة الطلاق عليها وجرّها إلى خارج البيت ورمى عليها حقيبتها. خرجت لوحدها، تجرّ قدميها، منهارة، ذهبت ولم تعد إلى ذلك المكان الملعون.

انقطع الاتصال بينها وبين أختها، هي الأخرى غيرت رقم هاتفها، وتسكن في قرية بعيدة، تبعد عنها مسير يومين بالسيارة. لقد كانت حياة فاطمة بائسة تعيسة منذ البداية، منذ الولادة.

والدتها لم تكن تدافع عنها، كانت ضحية هي الأخرى، ضعيفة، لا صوت لها، بلا ملامح، بلا وجود... لم تكن أُمًّا بالمعنى الحقيقي، كانت مجرد أداة تنفذ كل ما يأمرها به زوجها، ولا تعترض، ولا ترغب في أن تعترض.

لقد اعتادت، هذا هو الوضع الطبيعي في نظرها لشكل العلاقة بين الزوج وزوجته، خدعوها فقالوا لها أنتِ هكذا «امرأة صالحة»!! والحقيقة أنها لم تكن صالحة وإنما مجرد كائن ينفّذ الأوامر، كل الأوامر.. لا غير!!

(5)

كبرت ابتسام في بيت واسع، معظم غرفه مغلقة لا تُستعمل، لا حاجة لها، ولا أحد فيه سواها مع أمها التي كانت تغيب لساعات طويلة تعمل في بيوت الحي. تعود آخر الليل منهكة، تأخذ ابتسام من بيت دلال وتعودان إلى البيت، تضع ابتسام في سريرها، ثم تسقط هي على الأرض بجانبها لتنام ما بقي من ساعات الليل. توقظ ابتسام في الصباح قبل إشراقة الشمس، تعدّ لها إفطارها وتأخذها إلى مدرستها.

ابتسام في المرحلة الابتدائية، السنة الأولى، وكانت أمّها حريصة أشدّ الحرص على أن تُتمّ تعليمها. تأخذها كل صباح مشياً إلى المدرسة، ثم تذهب الأم بعد ذلك إلى البيت الذي تعمل فيه.

عملت في معظم بيوت الحي. «فاطمة الشغّالة»، هكذا كانوا يسمّونها، تعمل كل يوم في بيت، من الصباح وحتى مغيب الشمس، تتقاضى 60 ريالاً كأجرة على اليوم كله. لا تساوي شيئاً أمام ما تقوم به. لكن لا خيار لديها، كان عليها الصبر والاستمرار. هذا هو الحل الوحيد لتوفير لقمة العيش لها ولابنتها ومصاريف العلاج والدراسة والفواتير وغيرها.

تتعرّض للمضايقات باستمرار من الشباب في البيوت التي تعمل فيها. ذات يوم وصل الأمر بصاحب البيت الذي عملت فيه ذلك اليوم إلى محاولة اغتصابها، لولا أنها ضربته بعصا غليظة على رأسه فخرّ جثة بلا حراك.

***

للتوّ أوصلت ابنتها إلى المدرسة، ودّعتها وقبّلتها، ثم اتجهت إلى بيت أبو سعد على بعد شارعين من مدرسة ابنتها. وصلت وكانت قد غادرت زوجة وأبناء أبو سعد إلى المدرسة، كان هو في البيت ذلك اليوم. في العادة تكون أم سعد متواجدة، لا تترك فاطمة لوحدها مع زوجها. تعرفه جيداً. فتح أبو سعد الباب لها: «أهلاً يا مرحبا، تفضّلي». دخلت فاطمة. كان قد انقضى من عمرها حينئذ 31 سنة. شعرها أسود طويل، عيناها عسليّتا اللون، نحيلة القوام، متوسطة الطول، لون بشرتها حنطي، وجهها بيضاوي الشكل ممتلئ قليلاً، وشفتاها مستديرتان وممتلئتان قليلاً، وجافة، منهكة. الإرهاق بادٍ عليها، واضح لكل ناظر.

المسكينة لم تنم إلا ساعات قليلة. دخلت، خلعت عباءتها، ترتدي جلباباً واسعاً تحتها، وتُبقي حجابها، لا تخلعه أبداً... البيت ممتلئ بالأوساخ والقمامة، مقلوب رأساً على عقب. تبدأ عملها. أبو سعد صعد إلى الطابق الثاني، دخل غرفته واعتقدت أنه قد عاد لينام. هي تعمل لوحدها في الطابق السفلي.

مضت عشرون دقيقة أو أكثر بقليل، ثم سمعت صوت قفل باب البيت. خرجت إلى الصالة، وإذا بأبي سعد يقفل الباب بالمفتاح، وترتسم على وجهه ابتسامة خبيثة. ارتعبت، أحسّت بأنه قد نوى الشر بها. دخل عليها المطبخ، وقف بجانبها. «كيف حال ابتسام؟» يسألها. «بخير»، تردّ عليه، وتحاول الانشغال بغسل الصحون لعلّه يدعها وشأنها، وعيونها ترمقه بين الثانية والأخرى... تترقّب ماذا سيفعل، تُمنّي النفس أن ينقضي اليوم على خير.

«أشعر بمعاناتك، وأنا على استعداد للمساعدة بكل ما تحتاجين إليه أنت وابتسام، حتى لو رغبتِ بالسكن عندنا»، يقول لها. «جزاك الله خيراً، ما تقصّر»، تردّ عليه. يقترب منها: «ولماذا لم تتزوّجي حتى الآن؟» ثم وضع يده على كتفها الأيمن والتصق بها مباشرة من الخلف. فالتفتت إليه فاطمة بسرعة وبكل قوتها، وأخذت عصا مكنسة غليظة كانت بجانبها، ثم هوت بها على رأسه، فخرّ ساقطاً على الأرض لا يحرّك ساكناً.

أخذت عباءتها وهربت. الباب مقفل. عادت تبحث عن مفاتيح البيت، عثرت عليها في جيبه، ثم انطلقت، فتحت قفل الباب وخرجت راكضة. وصلت إلى الباب الخارجي، ومع خروجها دخلت أم سعد.

«ماذا بك؟ أين أنت ذاهبة؟ ماذا حصل؟» تسألها. انهارت فاطمة بالبكاء: «لقد قتلته، قتلته»... وتنوح. «من قتلتِ؟» تسألها أم سعد. «قتلت أبا سعد، حاول أن يغتصبني». قبضت أم سعد يدها وجرّتها إلى داخل البيت. «اسكتي، اسكتي، الجيران سيسمعوننا، تعالي معي، تعالي بسرعة»، تقول لها. «أين هو؟» تسألها. «في المطبخ؟» تجيبها.

توجّهتا إلى المطبخ، وإذا به جثة هامدة لا تتحرّك. «يا ربّي، ماذا فعلت؟» ونواحها مستمر ويتصاعد. حاولت أم سعد تهدئتها، وبينما هي كذلك همست في نفسها قائلة: «ليتني أنا من قتلتك».

***

وصلت سيارة الإسعاف، وتكدّست سيارات الشرطة حول البيت. الجيران عرفوا، والحي كله عرف، «الشغّالة الملعونة ذبحته»، هكذا قالوا، وهكذا انتشر بينهم الخبر. ولم تختلف كثيرًا صياغة الصحف الرسمية عما تناقلته الألسن في الحي، فكان العنوان العريض في صفحات الجرائم من كل الصحف في اليوم الذي تلا الحادثة كالتالي:

«عاملة منزلية تقتل صاحب المنزل الذي تعمل فيه بحي الأمير سلطان، شارع الأمير فهد، بجوار مسجد الأمير فرحان، على بعد شارعين من مدرسة الأميرة حصة، التي تقع بالقرب من جامع

الملك خالد، وذلك بعد أن استفردت به وأغلقت الأبواب عليه، ثم حاولت الفرار بعد جريمتها الشنعاء، لولا أنْ قبض عليها رجال الشرطة البواسل الذين داهموا موقع الجريمة وحوّطوه على الفور. وقد أُحيلت المجرمة إلى النيابة، ومن ثم إلى سجن النساء إلى حين صدور الحكم الشرعي بحقها».

(6)

أسبوع واحد بعد الحادثة؛ تمثل اليوم فاطمة أمام القاضي الذي سيصدر الحكم النهائي.

- القاضي: في يوم الاثنين الماضي الموافق 01/03/1998، قمتِ بقتل المواطن فلان بن فلان، المكنّى (بأبي سعد)، وقد كان ذلك عن سبق الإصرار والترصد، بعد أن أغلقتِ أبواب المنزل عليه وهو في غرفته دون أن يحسّ بشيء، ثم ما إن نزل إلى المطبخ حتى انهلتِ عليه ضربا بمطرقة كبيرة حتى فاضت روحه. وعليه فقد تقرر، بعد الاطلاع والمداولة، إصدار حكم الإعدام شنقًا حتى الموت، والله المستعان والموفق.

- هل لديكِ أية أقوال أخرى؟

تماسكت فاطمة، سلّمت أمرها لربها. أدركت أن لا جدوى من إضافة أي شيء على ما تقرر. ولكنها أحست برغبة في أن تقول هذه الكلمات الأخيرة فقط:

- يا شيخ، أنا لست قاتلة حاشا وكلا، لم أقتله عن قصد ولا لي مصلحة بالترصد لأحد حتى أقتله، أنا أم، وكل همي أن أحمي ابنتي وأوفر لها حياة كريمة. لقد تعدى أبو سعد علي، أغلق

الباب علينا وتحرش بي في المطبخ وأنا أقوم بعملي، وكان يهم باغتصابي فضربته، ولكنه سقط من فوره ومات، ما ذنبي؟ لقد دافعت عن نفسي، هذا كل ما في الأمر.

فقط دافعت عن نفسي وعرضي. لم أسمح له بانتهاكي. أنا لست قاتلة. وأنتم الآن تريدون قتلي ظلماً وعدوانًا. قتلي له كان خطأ، وليس عمدًا، دفاعًا عن النفس والعرض. اتقوا الله إن كنتم به تؤمنون.

- الشيخ (القاضي): لا توجد أمامنا أدلة على أنه حاول التحرش بكِ!

- فاطمة يائسة: تضحك وتردد: أدلة؟ هاااه؟! أدلة؟! ألا لعنة الله عليك وعلى أسيادك وعلى هذه البلد وقوانينها. لا أبالي بكم.. نعم أنا قتلته، ارتحت؟ أنا قاتلة، ارتحتم الآن؟ ولن تصدقوا إلا ما تريدون تصديقه. لذا لننهِ هذه المسرحية الآن بسرعة.. نفذوا حكمكم الظالم هذا ودعونا نمضي.. موعدنا الساعة.

(7)

يومان بعد إصدار الحكم النهائي، اليوم موعد تنفيذ الإعدام. جرّوها في أصفادها نحو حبل المشنقة، كانت غير مبالية بشيء، كانت أسعد من أي وقت مضى، «ستنتهي المعاناة أخيرًا»، تردّد في نفسها. لقد سئمت من هذه الدنيا، الموت أحب لها منها.

جلبوا أحد كهنتهم ليُلقّنها الشهادتين قبل أن ينفذوا جريمتهم البشعة النكراء.

- قولي ورائي: أشهد
- أشهد
- أن لا إله
- أن لا إله
- إلا الله
- إلا الله
- وأن محمّدًا
- وأن محمّدًا
- رسول الله
- رسول الله

قالت: لدي إضافة إن سمحتم لي؛ وأن لعنة الله على الظالمين، على الحاكمين الغاصبين، وكل خانع عبد ذليل من أفراد الشعب أجمعين.

أُعدمت في تاريخ 03/03/1998 في الفجر الباكر قبل أن يقوم الناس من مضاجعهم. قبل أن تشرق شمس ذلك اليوم .

(8)

انتظرت ابتسام أمها يوم الحادثة حتى الساعة الثانية بعد الظهر، لم تأت لتأخذها كما عوّدتها.. كانت تطلب إذنًا ممن تعمل لديهم وقت انصراف طفلتها من المدرسة لتوصلها إلى بيت دلال ثم تعود تكمل عملها، ويستغرق ذلك منها نصف ساعة يوميًا.

لم تعِ ابتسام شيئًا مما حدث، لم تدرك حجم الفاجعة حتى بعد أن عرفت بما جرى، لم تفهم معنى أن أمها قد ماتت، أُعدمت، لم تتوقع يومًا أن تتركها وترحل ولا تعود إلى الأبد!

أخذتها جارتهم دلال بعد أن اتصلت بها إدارة المدرسة. بقيت مع دلال، عاشت عندها حتى تخرجت من الثانوية والتحقت بالجامعة.

دلال امرأة عزباء، تزوجت أربع مرات ولم توفّق في جميع زيجاتها، ولم يرزقها الله بالذرية؛ رزقها بابتسام، فرحت بها. ربّتها وصرفت عليها وكبّرتها، لم تبخل عليها بشيء. تفوّقت ابتسام في دراستها، وتخرّجت من الثانوية بمعدل مرتفع. كانت تتعرّض للتنمر باستمرار في المدرسة، كانوا يسمونها «بنت الشغّالة»، ومنهم من يسميها «بنت السفّاحة».. عانت كثيرًا حتى أنهت

المرحلة الثانوية، لطالما دافعت عن أمها، كانت تحاول جاهدة لإثبات أن أمها ليست قاتلة، ما حدث كان قتلاً بالخطأ، نتيجة دفعها محاولة اغتصاب أبو سعد لها.

تقدمت على الجامعات المختلفة؛ وقُبلت في أهم الجامعات خارج البلد، ولكن الظروف منعتها من السفر، لا بد من وجود محرم (ذكر) كشرط للدراسة في الخارج؛ فاضطرت للدراسة في جامعة محلية. بدأت فيها، كانت لا تزال تقيم مع دلال، تسميها «ماما دلال». تعرفت على شابات في الجامعة من كل أقاليم الجزيرة العربية. عانت ابتسام ودلال الفقر طوال السنوات الماضية، عاشتا على الكفاف، اضطرت دلال فوق عملها كحاضنة أن تعمل بعض الأيام في البيوت.

اختلطت ابتسام ببعض أولئك الشابات، كن على غير مستوى ابتسام من الناحية العلمية ومن ناحية الانضباط في الحضور والانصراف وأداء المهام والواجبات. تعلقت بشكل خاص بإحداهن، أحبتها، اسمها منال، كانت هي الأخرى تعاني الفقر الشديد، وتعيش لوحدها في المدينة؛ أهلها يعيشون في قرية بعيدة في إحدى محافظات وسط الجزيرة.

لم تفترقا منذ تعرفتا على بعضهما؛ حتى بعد انتهاء المحاضرات، كانتا تخرجان معًا لتناول الغداء في أحد المطاعم

الصغيرة لوحدهما، يقع على بعد 150 مترًا من بوابة الجامعة، أسعاره غير مرتفعة، ترتاده الطالبات يوميًا على مدار الأسبوع.. كان تحصيل المال محور تفكيرهما، وحوله يدور معظم حديثهما.

لاحظت ابتسام أن منال تتأخر عن المحاضرات باستمرار، وفي أحيان كثيرة لا تحضرها من الأساس. أثار ذلك الفضول لدى ابتسام، فسألتها في المطعم: أين تذهبين كل هذا الوقت ولماذا تتأخرين؟ ترددت في الحديث، ثم قالت: أذهب للعمل. أعمل بجانب دراستي وذلك لسد حاجة أهلي. كانوا يتصلون عليها باستمرار طلبًا للمال، فاضطرت للعمل. كانت قد تعرفت هي على شابة في الجامعة ذات علاقات واسعة، وأخبرتها بأنها تعمل كوسيطة بين الشركات والبنات الراغبات في عمل جزئي براتب شهري جيد، للطالبات الجامعيات فقط. لم تكن تعرف منال عن تلك الشابة شيئًا سوى أنها ذات نفوذ وعلاقات واسعة كما يشاع عنها، وادعت أنها ساعدت بنات من قبل وتوظفن في محال تجارية بالقرب من الجامعة. تواصلت منال معها؛ أخبرتها برغبتها في الحصول على وظيفة، فوافقت على الفور، وقالت: سأتصل بك خلال أيام. ولكنها طلبت منها تفاصيل عن عمرها ووزنها وطولها. بعد أيام اتصلت عليها لتبشرها: «لقد حصلت على

الوظيفة وبأجر لا تتخيلينه، 10000 ريال شهريًا، والعمل فقط ثلاثة أيام في الأسبوع، أربع ساعات في اليوم الواحد».

«مع من؟» سألتها. قالت: «لدى الأمير سعود». كادت تفقد وعيها! «الأمير؟» تقول لها. ترد الوسيطة: «نعم الأمير، والعمل ليس شاقًا، والأمير ذو خلق وتربية، والعمل سيكون في قصره، مساعدة في القصر». ترددت منال في بادئ الأمر، قالت: «سأرد عليك بعد ساعة». لم تصدق الخبر، فرحت وتوجست، اختلطت مشاعرها، لا تدري ما العمل! هل توافق؟ هل تضيع هذه الفرصة التي ستغير حياتها؟ الراتب قادر على انتشال كل أهلها من الفقر! ظلت ساعة كاملة تتصارع مع نفسها، وفي النهاية قررت أن تتصل بالوسيطة وتخبرها بأنها موافقة.

«متى أبدأ وكيف؟» تسأل. ترد عليها: «الأسبوع القادم».

(9)

يوم الأربعاء صباحا من الأسبوع التالي تصل منال إلى الجامعة، وتصل وراءها سيارة سوداء جميع نوافذها مظللة وتأخذها. كانت الوسيطة فيها، «هل أنتِ جاهزة؟» تسألها. منال: «نعم جاهزة». اتجهوا للقصر، دخلت منال والوسيطة، استقبلهما الحرس، تم تفتيش الاثنتين، تفتيش كامل، بما في ذلك الأماكن الحساسة .

شعرت منال بالانتهاك الجسدي لأول مرة، وأدركت، ولكن متأخرة، أنها وقعت في الفخ. أيقنت أنه لا طريق للرجعة. دخلتا إلى قاعة كبيرة لا أحد فيها سوى عشرة من الحرس، قال أحدهم: «اجلسي»، وأشار بإصبعه إلى الوسيطة، فغادرت.

جلست منال لوحدها. انتظرت ساعة ونصف، العرق يتصبب من صدغيها ويديها، والحرس يحدقون فيها طوال الوقت. بعد هذا الوقت من الانتظار، تتعالى أصوات خطى كثيرة وتقترب، ازدادت سرعة خفقان قلبها تكاد تفقد وعيها، تتماسك، تحاول... وصلوا. شاب في الثلاثين من عمره ومعه حاشية من 13 عبدًا من حوله، يدخل القاعة، أومأ لهم برأسه، فانصرفوا جميعهم عدا حارس، بقي معهما .

- أهلا بك منال!
- منال: الله يسلمك طال عمرك. جسدها يتراعد هلعًا.
- قالوا لي عنك.
- منال: أي نعم طال عمرك، أنا هنا من أجل الوظيفة.
- جاهزة لها؟
- منال: أكيد طال عمرك. كانت في تلك اللحظة تود لو أنها رفضت المجيء منذ البداية، ولكن لم يعد الأمر بيدها. قررت أن تستمر.

قال لها: «حسنا، تعالي معي». تبعته، مشوا في رواق طويل جدًا، ثم انعطفا يمينًا، ومشيا طويلا، ثم صعدا درجًا طويلًا جدًا، ثم اتجها يسارًا، وإذا بمصعد، دخلا المصعد وصعد بهما أو نزل، لم تعد تتذكر، لم تعرف أكان يصعد أم يهبط. بقيا فيه 3 دقائق حتى توقف وفتح. رواق طويل آخر، ثم في نهايته باب كبير، وحراس واقفون أمامه، فتحوا الباب: «تفضل طال عمرك» وينحنون له.

دخلت، فإذا هي غرفة ملكية شاسعة مطلة على حديقة كبيرة ومسار رياضي وبركة سباحة، وبجانبه بأمتار سيارات رياضية آخر موديل، بالعشرات. في الغرفة سرير كبير وشاشة تلفزيون عملاقة، وسجّاد أفخم طراز . مشيا، قال لها: «تفضلي اجلسي». جلست على إحدى الكنبات الوثيرة. شدّها وجود عشرات الأسلحة

الرشاشة معلقة على جميع حوائط الغرفة، والمئات من زجاجات الفودكا المتراصة في زواياها، ولوحات كبيرة الحجم ترتسم فيها صور الملك وولي عهده ووالد الأمير.

منال تنظر إلى الصور وتفاصيل الغرفة، ووجهها يتصبب عرقا، توتر رهيب، رعب .. قال لها: «انزعي عباءتك وحجابك، خذي راحتك» . قالت: «لماذا؟»، فرد فورا وبانزعاج واضح: «لا أريد أن أسمع كلمة لماذا هنا! تفهمين؟»، ترد عليه : «مرتاحة هكذا يا طويل العمر، متى سنتحدث عن الوظيفة؟!»، يكرر: «اخلعي عباءتك وحجابك، كلامي واضح، هذه هي وظيفتك!!»، تجمّد الدم في عروق منال، انعقد لسانها. عرفت أنه لا مفر .

خلعت عباءتها وحجابها وجلست. ذهب هو إلى المرحاض ثم عاد . جلس بجانبها، اقترب منها ، وضع يده على فخذها الأيسر ويده اليمنى على كتفها الأيمن، وضمّها إليه بقوة، ثم حاول تقبيلها، أشاحت بوجهها عنه، لم تحتمل أنفاسه الكريهة، وحاولت أن تنهض، سحبها من شعرها فسقطت مجددًا على الكنبة. صرخت بأعلى صوتها، فانهال عليها صفعاً وشتمًا حتى فقدت وعيها.

بعد ساعات استيقظت، فوجدت نفسها في ذات الغرفة عارية تمامًا، والأمير بجانبها يشاهد الفيلم المعروض على شاشته ويضحك!!

لقد اغتصبوها وصوّروا كل شيء، ووجهها واضح في الفيلم المصوّر، كل شيء كان واضحًا. انهارت، سقطت عند قدميه تتوسل إليه، «أرجوك امسحه، أرجوك امسحه، ستقتلني عائلتي إن عرفت.. أرجوك أرجوك». يدفعها بقدمه ثم ينهض، ويقول لها: «الأسبوع القادم نفس الوقت ونفس اليوم تكونين هنا، وإلا سيكون المقطع حديث البلد كلها». «حاضر حاضر، أوعدك، ولكن امسحه، امسحه الآن». يرن جرسًا بيده، يدخل الحرس يأخذونها بالقوة ويلقون بها أمام بوابة القصر. تأتي نفس السيارة السوداء التي أوصلتها وتعيدها من حيث أخذتها من أمام بوابة الجامعة. صارت الساعة العاشرة مساء، لم يعد هنالك أحد في الجامعة. أخذت سيارة أجرة وعادت لشقتها.

بكت بحرقة، مزقت ملابسها، ورمتها. لعنت اليوم الذي تواصلت فيه مع تلك العاهرة (الوسيطة). ومن الأسبوع التالي تكررت اللقاءات. نفس اليوم نفس الموعد، تذهب إليه، يغتصبها طوال اليوم ثم يدعو الحرس وينتشلونها من على الأرض، ثم يرمونها أمام بوابة القصر وتأخذها السيارة ذاتها. وهكذا استمر الوضع حتى هذا اليوم . تخبر ابتسام.

(10)

ظلت منال عالقة في علاقة لا نهاية لها مع ذلك الأمير؛ ومن يقدر على محاسبته؟ لا أحد، هو جزء من العائلة المالكة التي تمتلك الشعب والأرض وكل شيء هناك. استمرت مكرهة، وفي كل مرة تتعرض فيها للاغتصاب منه والضرب تتصل بابتسام منهارة تشكو لها الحال.

ذات مرة انتفضت ابتسام وقالت سوف نبلغ عليه الشرطة! رفضت منال ذلك فورًا، «لا لا أرجوكِ، سيقتلني إن عرف». ولكن ابتسام أصرت عليها. ذهبتا إلى مركز شرطة قريب. هناك تجد مراكز الأمن والمخابرات والشرط في كل جحر وزاوية، والأمان مفقود والعدالة منعدمة. وصلت ابتسام ومنال، ترددت منال قبل أن تنزل، ضغطت ابتسام عليها، وأصرت.

- مرحبا، لو سمحت، نحن هنا لتقديم بلاغ عن جريمة اغتصاب، والضحية معي، ها هي.

- الشرطي: نعم؟! ماذا قلتِ؟ اغتصاب؟! لم يعرف معنى الكلمة! غير معترف بها.

- ابتسام: نعم، اغتصاب، ومن قبل أمير اسمه سعود، وقصره غير بعيد. يجبرها كل أسبوع على ممارسة الفاحشة معه، وكان قد

صورها في فيلم يتناوب على اغتصابها فيه ثلاثة من عبيده وهي فاقدة للوعي، ويهددها بعرضه ونشره إن لم تلتزم بالحضور إلى قصره كل أسبوع، بسيارة خاصة سوداء تأتي من طرفه لتأخذها من أمام الجامعة، ولم تعد تحتمل كل ذلك. وكل مرة يعنفها أثناء اغتصابه لها، ثم يرميها في الشارع بعد إشباع شهوته!

- الشرطي: هل أنتِ بكامل قواك العقلية؟ هل تريدين أن ترفعي شكوى ضد أمير؟ مجنونة أنتِ؟ نصيحتي هي أن تغادرا الآن قبل أن ينقلب البلاغ ضدكما، وعندها لن يرحمكما أحد.

- منال: حسنًا، شكرا لك. لا تخبر أحدا، رجاء. سنغادر، نعتذر عن إزعاجكم.

(11)

وصل الخبر إلى الأمير، تظاهر بأن لا شيء قد حدث. قرر أن يستدرج ابتسام هي الأخرى، لقد فار دمه غضبًا عندما عرف أنها أرادت أن تشتكيه!! كيف تجرؤ هذه المملوكة؟! تعيش في مملكتنا، وتريد محاسبتي؟! لأول مرة منذ تورطت منال في هذه العلاقة لا يطلبها في ذات الموعد. وكأنه نسيها لمدة سنة كاملة. شعرت منال أنها تخلصت منه أخيرًا، ركزت على دراستها، وكانت ابتسام معها وتساعدها. وخلال هذه السنة، اكتشفتا بالصدفة أن هنالك مئات الطالبات اللاتي يتعرضن لذات الشيء من أمراء غيره، ولكل أمير قوادة خاصة بين الطالبات تنتقي له الفتاة التي تناسب معاييره الشهوانية.

لقد كان الأمر فاجعًا لابتسام ومنال، والأكبر منه أن هذا الأمر متكرر في كل جامعات البلد التي يقارب عددها الثلاثين جامعة، ويقال إنه حتى طالبات الثانوية يتعرضن لذات الأمر من قبل قوّادات وقوّاد الأمراء الذين لا حصر لهم. انقلب العالم ظلامًا في عيونهما، الأمر جلل، وهما عاجزتان. واستغربتا كيف أنه قد ترك منال وشأنها لعام كامل!! بلا ابتزاز ولا اغتصاب وتعنيف وإذلال أسبوعي!! هل نسيها؟!

مضت منال في دراستها، هي الآن في السنة الثانية، تخصصها صيدلة، وكذلك ابتسام معها. مصاريف أهل منال تزداد، وطلباتهم لا تتوقف، ومرتب الـ10000 الذي وُعِدت به من قوّادة الأمير لم تحصل منه على هللة واحدة، كان الموضوع كله فخًّا. قررت أن تبحث عن وظيفة بنظام عمل جزئي خمس ساعات في اليوم بعد خروجها من الجامعة، فوجدت وظيفة في محل ملابس نسائية صغير، وبراتب 2000 ريال في الشهر، تعمل يوميًا من الخامسة وحتى العاشرة مساء، وإجازة يوم واحد فقط هو يوم الجمعة. فرحت بالوظيفة وأخبرت ابتسام التي تبحث هي الأخرى عن عمل بذلك.

اضطرت الظروف دلال لتعمل في تنظيف البيوت في الحي، بجانب رعاية الأطفال في بعض الأيام، وبالكاد تجد ما يكفيها هي وابتسام. سألت منال صاحب المحل الذي تعمل فيه إن كان بحاجة لموظفة أخرى، فقال نعم، بنفس الوقت والمرتب. سُرّت ابتسام بذلك، وصار اليوم كله ينقضي خارج البيت؛ من الصباح حتى الرابعة عصرًا في الجامعة، ثم بعد ذلك من الخامسة وحتى العاشرة مساء في المحل.

استمر الحال هكذا لمدة ستة أشهر، لم تتحسن الأمور كثيرًا، ولكن صار بإمكان منال أن ترسل لأهلها بعض المال كل شهر،

واستطاعت ابتسام أن تساعد في مصاريف البيت، مما خفف قليلًا عن دلال.

(12)

اليوم الخامس من شهر رمضان المبارك؛ الشمس اللاهبة تتوسط السماء، استيقظ أحمد للتو، قام ليصلي صلاة الظهر في مسجد الحي. أحمد هو شاب في الثالثة والعشرين من العمر، تخرج منذ عام من كلية الصحافة والإعلام بتقدير ممتاز، كان شغوفًا بالصحافة من أيام الثانوية. يحب كتابة التقارير والمقالات الصحفية، يكتب دائمًا وحول كل شيء دون أن ينشر من كتاباته شيئا، لكنه رغم شهادته وتقديره العالي لا يزال عاطلًا عن العمل. صار روتينه اليومي منذ تخرجه من الكلية أن يستيقظ ويتجه مباشرة للبحث عن وظيفة طوال اليوم. هو الأكبر بين إخوته، لديه أربعة إخوة، كلهم ذكور، أمه ربّة منزل، ووالده عسكري في الجيش برتبة عالية، كان معظم الوقت مرابطًا على الحد. وأحمد هو من يحل محل والده في غيبته، كل المسؤوليات تلقى على عاتقه.

لقد عرف أسرارًا كثيرة مما يجري بين ضباط الجيش، وكيف تدار الأمور هناك، وعرف عن الفساد المرعب في الجيش كله، والنهب الذي يحصل تحت مسميات مختلفة، وعرف عن الانتهاكات والجرائم التي يرتكبها الجنود في حق الأبرياء من

المسلمين في البلد المجاور. عرف ذلك عن طريق ما يخبره به والده في بعض الأحيان، وعن بعض الملفات التي بحوزته، كان يطلع عليها باستمرار دون إذن والده. يتمنى أن يكتب عن كل ما قرأه وسمعه، ولكنه يعرف أن الثمن هو رقبته ورقبة والده وأمه وإخوته.

خرج متوجهًا إلى مركز تجاري كبير مليء بالمحال المتنوعة، دخل إلى 13 محلًا، ما إن تخرج من فيه عبارة «أنا باحث عن عمل» حتى يتم تجاهله «لا وظائف عندنا»، وبعضهم أعطاه رقم الإدارة للتواصل. قبل أن يغادر المركز دخل محلًا لبيع الحلوى وناولهم ملفه، قالوا «لا يهمنا تخصصك؛ العمل هو كذا وكذا، وتعمل بجانبه كمحاسب ومنظف». «كم الراتب؟» يسألهم، «3000، موافق؟». يرد على الفور: «متى أبدأ؟»، «بعد يومين». الحمد لله، شيء أحسن من لا شيء، يردد في نفسه. خرج وعاد إلى البيت. طمأن أمه أنه حصل على وظيفة. بعد يومين بدأ العمل، كان شاقًا بالمقارنة إلى الأجر، ولكنه استمر فيه على مضض.

ظل في المحل ذاك لمدة خمسة أشهر ونصف قبل أن يتغير كل شيء، وقبل أن يقرر فجأة ترك البلد واللجوء إلى بلد آخر هربًا. طوال تلك الأشهر الخمسة كان يلحظ فتاة خطفت أنظاره وقلبت كيانه، تعمل في نفس المركز التجاري الذي فيه المحل

الذي يعمل فيه. كان يبدأ عمله من الثالثة بعد الظهر وحتى الساعة العاشرة مساء. يترقب لحظة وصولها ولحظة خروجها. كان مفتونًا بالنظر إليها، فقط يود أن ينظر إليها دون حتى أن يكلمها.

لم يكن يخلو المحل من الزبائن على مدار الساعة. ينشغل أحمد معهم، ويفوته أحيانًا النظر إلى تلك الفتاة، كان ينزعج ويتشتت انتباهه إذا لم يرها في أحد الأيام. وذات مرة وهو منهمك في عمله، تدخل ذات الفتاة، اشترت بعض الحلوى وخرجت، رآها أحمد، لم يصدق ما رأته عيناه. ظل محدقًا بها طوال الوقت. استغربت هي منه. المسكين تعلق بها حتى كاد يجن. يريد رؤيتها كل يوم، صار يخرج في فترة الراحة أثناء عمله ليعرف أين المحل الذي تعمل فيه. عرف المحل وصار يمر به كل يوم دون أن تشعر هي، فقط ليراها ثم يعود إلى عمله. لم تنتبه له ولم تعره أي اهتمام، ولكنه ظل مهتمًا هو بها، بل مهووسا بها، خطفته من نفسه دون أن تفعل له شيئا.

لولا تلك الفتاة لما استمر أحمد في العمل هناك، كان الدافع للاستمرار بالعمل في ذلك المحل رغم العمل الشاق فيه وقلة الأجر الذي يتحصل عليه هو أن يراها. وكان يراها.

(13)

كان لصاحب المحل الذي تعمل فيه منال وابتسام علاقة بموظفة كانت تعمل لديه، وهذه الموظفة لها علاقة هي الأخرى بإحدى قوّادات الأمراء. اللعنة على هذه العائلة؛ يقال إن عدد أفرادها يتجاوز الـ 50 ألف فرد!! يعيثون في الأرض الفساد والإجرام، كلهم فوق السؤال والحساب، هم خلق فوق الخلق، لا أحد يحاسبهم ولا يجرؤ!

كان الأمراء لا يكتفون بمطاردة الطالبات فقط، بل وحتى العاملات في المحلات وفي كل مكان. وهذه القوّادة كانت متخصصة في الفتيات اللاتي يعملن في الأسواق.

جاءت ذات يوم إلى صاحب المحل كما لو أنها زبونة، رأت منال وابتسام، تأكدت من كونهما تعملان هناك، اتفقت مع صاحب المحل ألا يقفل المحل يوم غد كما العادة، وليتأخر قليلًا إلى الساعة الحادية عشرة، حتى يفرغ المركز كله من الناس والعمال، وقل للموظفتين: سأعطيكما ضعف أجركما لذلك اليوم مقابل البقاء لساعة أخرى لترتيب المخزن في الداخل بعد إقفال المحل.

لم تشك منال ولا ابتسام في الأمر ولو للحظة، ساعة ليست كثيرة والمقابل جيد. بقيتا في المحل حتى الوقت المحدد، أقفلتا الباب الخارجي ودخلتا تعملان في المخزن، ترتبان البضاعة الواصلة قبل يومين، وتتحدثان مع بعضهما البعض، وفجأة إذا بصاحب المحل يدخل عليهما، شكرهما وقال: ارتاحا قليلًا، وجلب لهما فنجاني شاي، وأخرج ربطة من المال وقام يعدها ويوزعها عليهما، ويصر على أن تكملا الشاي الذي أحضره لهما.

شربتا الشاي، وبعد دقيقتين بالضبط شعرتا بدوار، حاولت ابتسام أن تنتصب وتطرق الأبواب لكنها تسقط على الأرض كلما قامت، وكذلك الأمر مع منال. بعد خمس ساعات تستيقظ منال في نفس غرفة الأمير التي تعرفها جيدا، وهو واقف أمام الشرفة المطلة على حديقته، وتلتفت وإذا بابتسام بجانبها مغمى عليها وعارية تماما. فعلوا بها ما فعلوه بمنال.

التفت إليهما بعد أن استيقظت ابتسام، وقال: «معقول؟ كنت تريدين تقديم بلاغ ضدي؟! وعند من؟ عند الحكومة؟ ألا تعرفين أننا نحن الحكومة، نحن من نملك هذه الأرض ومن عليها. هل تفهمين يا بنت القحبة؟»، ويبصق على ابتسام ثم يتوجه نحوها ويرفسها بقدمه النجسة. «سيصلكما اتصال مني الأسبوع القادم،

تسمعان وتطيعان، وإلا ستصبح فضيحتكما على ألسنة الملايين» .

اعتقدت منال أن الأمر قد انتهى وأصبح جزءا من الماضي بعد أن مضى أكثر من عام على انقطاع علاقتها به، ولكنه لم ينسها ولم ينس بشكل خاص ما قامت به ابتسام. كل أسبوع يتصل، تختطفهما سيارة سوداء وتتوجه بهما إلى قصره، يغتصب الاثنتين معا ويعنّفهما، ثم يرميهما في الشارع، وهكذا استمر الأمر لخمسة أشهر قبل أن ينتهي كل شيء.

(14)

لاحظ أحمد تغيب الفتاة التي تعلق بها عن العمل، لم يعد يراها. انقطعت عن العمل الأشهر الأخيرة كلها. لقد قرر في نفسه آخر مرة رآها فيها أن يتحدث معها، ويعبر لها عما يشعر به تجاهها، ولكن لم تسر الأمور على ما كان يتمنى.

قرر أن يذهب بنفسه إلى صاحب المحل الذي كانت الفتاة تعمل فيه، وسأله:

- لو سمحت، لدي استفسار.

- تفضل، يرد عليه.

- لقد كانت هناك فتاة تعمل هنا منذ أشهر، لا أعرف اسمها ولكني لم أعد أراها، هل تعرف ماذا حدث لها؟!

- توتر قليلًا صاحب المحل، وقال: ولماذا تسأل عنها؟

- فقط أود الاطمئنان عليها.

- لا، لا أعرفها، لقد تركت العمل دون أن تخبرني، لا أدري ماذا جرى لها!!

- طيب هل يمكنك التأكد إن كنت لا تزال تحتفظ برقمها؟

- قلت لك لا، اذهب الآن وإلا أبلغت الأمن.

شعر أحمد أن هناك شيئا ما يخفيه صاحب المحل. لم يعرف ماذا يفعل، لقد اختفت الفتاة وتبخرت كل أحلامه. انتهى كل شيء، وترك وظيفته، لم يعد قادرًا على العمل هناك، فقد الدافع والشغف للعمل، كل شيء في ذلك المكان يذكّره بها. وعاد إلى روتينه السابق، يبحث عن عمل جديد.

في آخر يوم عمل له، وهو يغادر المحل، جاءت امرأة مغطاة بالسواد؛ أعطته ورقة صغيرة كتبت فيها رقمها، وقالت له بدون مقدمات: اتصل بي إن أردت معرفة ما جرى، ثم اختفت. لم ينطق أحمد بكلمة. لم يفهم شيئًا مما قالته، ركب سيارته وعاد إلى البيت ونسي الورقة في السيارة. لم يهتم كثيرًا بما قالت، اعتقد أنها محتالة أو غير سوية. في أحد الصباحات استيقظ وتجهّز ليبدأ روتينه اليومي المعتاد. ركب سيارته وكان قد نسي الورقة.

ظل يدور على الشركات لساعات وساعات، ثم لما ملّ، توقف عند إحدى المحطات، تناول ساندويتشًا وكوب شاي وهو جالس في سيارته يشاهد بعض الفيديوهات على هاتفه. وبينما هو كذلك، لمح الورقة التي أعطته إياها المرأة ذلك اليوم على المقعد الأمامي.

«لمَ لا أفتحها وأتصل؟!» يسأل نفسه. وبالفعل اتصل بالرقم، لكن لم ترد. حاول ثانية، لم تجب.. مزق الورقة ورماها وعاد إلى

البيت، أقفل باب غرفته على نفسه وغط في النوم حتى اليوم التالي.

(15)

استيقظ على صوت رنين الهاتف؛ الساعة السابعة صباحًا. من المتصل؟ نسي أين هو وماذا جرى له. استرجع ذاكرته، أخذ هاتفه، رقم مجهول! قام وذهب للمرحاض، ثم ارتدى ثوبه وتجهز للخروج. جاء الاتصال مرة ثانية من نفس الرقم، التقط الهاتف بسرعة هذه المرة:

- نعم.
- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.
- أنا التي أعطيتك رقمي ذلك اليوم في المحل، هل تذكرني؟
- نعم، نعم أتذكرك، حاولت الاتصال بالرقم الذي أعطيتنيه، ولكن لم أجد جوابًا!
- أعتذر يا ابني، كنت منشغلة ولم أسمع صوت الهاتف.
- لا بأس، أعتذر عن إزعاجك.
- المهم، هل تريد معرفة ماذا جرى؟
- بخصوص ماذا؟ لا أعرف عماذا تتحدثين بالضبط؟
- عن الفتاة التي جئت تسأل صاحب المحل عنها! هل تتذكرها؟

- نعم، نعم، أرجوك أخبريني، ماذا تعرفين عنها؟
- سنلتقي عند المكان الفلاني يوم الأربعاء القادم الساعة السابعة مساءً. ثم أقفلت الخط.

بدأ أحمد يشعر بالتوتر، اليوم هو الاثنين. كيف سينتظر إلى يوم الأربعاء؟ كان يتحرّق فضولا لمعرفة ماذا يجري معه، ومن هذه السيدة، وماذا جرى لتلك الفتاة التي سُحِر بها!

(16)

اليوم الموعود... وصل أحمد إلى المكان. كان مقهى قديمًا يطل على البحر، والزبائن فيه قليلون. الساعة السابعة مساءً، جلس على الطاولة وانتظر. وفجأة، جاءت امرأة بذات العباءة، منتقبة لا يرى منها سوى عينيها، وترتدي قفازات سوداء أيضًا.

- السلام عليكم، أرجو ألا أكون قد تأخرت عليك.

- وعليكم السلام. جئتِ على الموعد، لم تتأخري. ماذا تشربين؟

- لا شيء، شكرًا. لن أبقى طويلًا، قد يكون المكان مراقبًا!

- يعدّل جلسته ويتقدم للأمام، زاد توتره. أخبريني، ماذا يجري ومن يراقب المكان؟

- لقد كنت تلك الليلة، لا زلت في المحل. أنا المسؤولة عن تنظيفه وعن إغلاق أبوابه ومخزنه، وكان عملي ينتهي الساعة العاشرة كالعادة، لكن تلك الليلة طلبوا مني المفاتيح وأن أغادر قبل إغلاق المحل. هم سيقفلونه بعد ساعة. قال لي صاحب المحل: «اذهبي، لا تقلقي». فذهبت، ولكني لم أكن أعرف ما السبب ولماذا بقيت الفتاتان هناك لوحدهما!

جاء اليوم التالي، وصلت للمحل، لا يزال مغلقًا! والمفاتيح مع صاحب المحل، أخذ مني النسخة التي كانت معي. انتظرت، واتصلت على صاحب المحل، فقال: «تعالي غدًا، المحل مغلق اليوم وأنا منشغل الآن» وأغلق الخط في وجهي. عدت إلى بيتي حتى صباح اليوم التالي، حضرت إلى المحل باكرًا، وجدت المحل مفتوحًا وصاحبه فيه، ولا أحد معه، وكان ينظف المخزن لوحده. سألته: هل تريد مني أن أنظفه؟ قال: «لا، اكنسي المحل فقط».

وفجأة جاءه اتصال فجَعَه، تغير لونه، ثم خرج مسرعًا وهو يقول: «حاضر، حاضر الآن يا طويل العمر»، غادر دون أن يقول لي شيئًا. بقيت لوحدي هناك، نظفت ثم جلست على كرسي لأرتاح قليلاً... فرأيت جهاز التحكم في الكاميرات مفتوحًا في الدرج الأسفل من طاولة المحاسب. دفعني فضولي لأرى كيف تعمل وماذا تصور، ولم أكن أعرف كيف أستخدمها. ضغطت على زر كبير فيها، فظهرت المقاطع المصورة خلال الأسبوع الماضي كله، ثم رأيت في الشريط الأسفل مقطعًا لأشخاص ربما عددهم سبعة في المخزن. ضغطت على الشريط، فظهر لي كل ما جرى تلك الليلة.

- ماذا جرى؟

- دخل صاحب المحل ومعه صحن صغير فيه فنجانان شاي أو قهوة، لا أدري، ثم وضعه على طاولة وسط المخزن فيما الفتاتان لا تزالان ترتبان البضاعة فيه. تحدث معهما، لا أدري ماذا قال بالضبط، جلستا معه، ورأيته يصر عليهما أن يشربا من الشاي. وبعد قليل فقدتا الوعي وسقطتا على الأرض، ثم قام هو على الفور وفتح الباب وأدخل امرأة يرافقها أربعة ذكور ضخام الأجسام، ومعهم حقيبتي سفر كبيرتين، وضعوا ابتسام في واحدة ومنال في الثانية، وغادروا بسرعة.

- لحظة، لحظة! لا أصدق ما تقولينه. ومن هؤلاء الذين خطفوهما؟!!

- لا أعرف، ولكنني صورت بهاتفي بعض المشاهد التي تثبت كلامي. سأرسلها لك، وأنت تولى المهمة بنفسك، وأرجوك أبعدني عن كل هذا.

- حسنًا، أرسلي لي الصور.

- كما طلبت منك، لا علاقة لي بشيء، ولا أعرفك ولا تعرفني، ولم ألتقِ بك مطلقًا. ربي يسهل لك أمرك.

ثم اختفت ولم تظهر ولم تتصل بعد ذلك مطلقًا. قبل أن تغادر، أعطته رقمًا في ورقة وقالت: «هذا رقم منال».

(17)

صار لدى أحمد الآن جزءًا من مشاهد التخدير والاختطاف، وكذلك رقم منال. قرر أن يمارس عمله الذي يحب: «سوف أكتب تقريرًا كاملًا عن هذه الجريمة وأعرف من وراءها وكل المتورطين فيها»، قال في نفسه.

اتصل على منال برقم آخر غير رقمه الخاص، فردّت فورًا:

- أحمد: مرحبًا، منال؟

- منال: نعم، من المتصل؟

- أحمد: كيف يمكنني أن ألتقي بك؟

- منال: من أنت؟

- أحمد: الموضوع خطر، ولا بد أن نلتقي!

- منال: الجامعة كما اتفقنا. وأقفلت الخط.

كانت تظن المتصل من طرف الأمير. يعرف أحمد موقع جامعة البنات. توجه إليها، يعرف شكلهما، منال وابتسام غير منقبتين. انتظر هناك حتى وصلت الحافلة التي تقل البنات، نزلن، لمح ابتسام على الفور، خفق قلبه، نزل من سيارته ومشى نحوهما.

- أحمد: مرحبًا، أنا أحمد، اتصلت على منال قبل ساعة!

- منال: نعم، عرفت. هل أنت من طرف الأمير؟

استغرب أحمد:

- لا، من الأمير؟

- منال: إذن، من أنت؟

- أحمد: أنا صحفي، وأعرف ماذا جرى لكما، ولدي أيضا أدلة وصور على ذلك.

- ابتسام: صحفي؟ أدلة؟ كيف؟ ماذا تريد؟

- منال: عفوًا، كيف حصلت على رقمي؟

- أحمد: القصة طويلة. هل تودان أن نجلس ونتحدث؟

- منال: بعد ساعة، لدينا محاضرة الآن.

- ابتسام: لا، الآن تعال، سنذهب إلى المقهى في الشارع المقابل للجامعة.

- أحمد: اركبا معي إذن، سنذهب في سيارتي.

- منال: لا، سنمشي على أقدامنا إلى هناك، اذهب أنت بسيارتك.

وصلوا إلى المقهى، جلسوا. لا يوجد أحد سواهم الثلاثة، الطالبات في الجامعة، الناس في أعمالهم، والمكان هادئ.

- أحمد: لقد كنت أعمل في محل قريب من المحل الذي كنتما تعملان فيه في نفس المركز التجاري وسط البلد، هل رأيتماني من قبل؟!

- منال: لا، لم ألحظك من قبل.
- ابتسام: ولا أنا.
- أحمد: لا بأس، كنت أعمل هناك، وتركت العمل بعد أن انقطعتما عن العمل هناك.
- منال: ولماذا؟
- أحمد: لا أدري.
- ابتسام: هل أنت طبيعي؟
- أحمد: لقد ذهبت إلى صاحب المحل الذي كنتما تعملان لديه، وسألته عنكما فتوتر، وقال إنكما تركتما العمل ولا يدري ما السبب. وعند آخر يوم عمل لي جاءتني امرأة وأعطتني رقمها، وأخبرتني بكل شيء، ومنها حصلت على رقم منال. لا أعرف اسم المرأة.
- منال: بم أخبرتك؟ تكلم.
- أحمد: بأنكما تعرضتما للخطف من المحل في تلك الليلة التي طلب منكما البقاء حتى الساعة الحادية عشرة، ولدي الدليل على كل ما حصل.
- ابتسام: أرنا ماذا لديك، بسرعة.
- أحمد: تفضلي، شاهدي... هذه بعض الصور.
- ابتسام: وماذا تريد الآن؟

- أحمد: أريد أن أعرف المزيد. إلى أين تم اختطافكما، ومن وراء ذلك، ولماذا أنتما؟

- منال: القصة طويلة ومتشعبة. لقد وقعت في فخ قوّادة تعمل لصالح أحد الأمراء منذ عام ونصف تقريبًا. اغتصبني وصوّر ذلك، وصرت أذهب له أسبوعيًا تحت الضغط والتهديد ليمارس ساديته علي ويفرغ وحشيته فيّ. وظللت على تلك الحال لمدة طويلة، حتى دفعتني ابتسام لتقديم بلاغ ضده. علم بذلك، فقرر استدراج ابتسام معي. قطع تواصله معي لأكثر من عام كامل، حتى حصل ما حصل تلك الليلة في المحل. خطفونا، اغتصبونا، صوّروا كل شيء، والآن مجبرتان على العمل لدى الأمير، نستدرج له الفتيات، ويغتصبنا كل أسبوع في قصره، ثم يرمينا أمام بوابته، وأحيانًا يأتي بضيوفه ليغتصبونا كذلك معه. وهكذا منذ أربعة أشهر. والآن نحن مطالبتان بإحضار فتيات له، وإلا سنتعرض لعقوبة منه. لا ندري ماذا قد يفعل. اسمه سعود، وقصره قريب من البحر. وليس هو الوحيد، هو جزء من شبكات دعارة كبيرة كلها مرتبطة بأمراء من الأسرة المالكة.

- أحمد: يا إلهي، ماذا تقولين؟! لم يصدق مع من وقع! الأمر أعقد مما تخيلت!

- ابتسام: لماذا إذن تواصلت معنا؟

- أحمد: سوف أفضحه، ولكن أحتاج إلى مزيد من الوقت والمعلومات، وسوف أنشر تقريري مفصلًا في حكاية متكاملة عن كل ما قلتماه لي. وهذا سيساهم في فضح بقية شبكات الدعارة المرتبطة ببقية الأمراء.

- ابتسام: ثم ماذا؟

- أحمد: لعل ذلك يستفز الشعب لينتقم، الحل بيده. أعرف أنني لن أجد ناشرًا لما سأكتبه، ولكني سأخرج أنا بنفسي إلى بلد آمنة أستطيع منها نشر كل ذلك، وسوف أسهل لكما الخروج معي إن أردتما.

- منال: حقًا؟!

- ابتسام: هل تقصد أن نهاجر؟

- أحمد: نعم. هذا هو الحل الوحيد، وأعرف أن له أثمانًا باهظة، ولكن طريق الحق والحقيقة هكذا؛ لم يكن يومًا معبّدًا بالورود. وأنا مستعد لترك كل شيء هنا من أجل رفع كلمة الحق وكشف هؤلاء المجرمين.

- منال: سوف نرد عليك بعد أسبوع. لا بد أن نذهب الآن.

- أحمد: أنتظر ردكما، لا تتأخرا.

(18)

ظل أحمد خلال هذه الفترة يدوّن كل ما عرفه، ويجهز نفسه استعدادا لمغادرة البلاد. كان قد توقف عن البحث عن عمل جديد، ولم يعد يخرج كثيرًا، عكف على الكتابة في غرفته، وينتظر رد منال وابتسام. لم يكتب تقريرًا صحفيًّا معتادًا، بل قرر أن تكون رواية، يسلط فيها الضوء ليس على ما تعرضت له منال وابتسام وحسب، بل على ما تتعرض له النساء عموما تحت سطوة هذا النظام الوحشي الحاكم. مر أسبوع كامل دون أن يشعر به، استغرقه في الكتابة، ومطالعة قصص الفتيات الأخريات، ومئات الصور لرسائل نصية أرسلتها له منال بينها وبين قوّادة الأمير.

مر الأسبوع؛ ينتظر أحمد اتصالًا من منال ولكن لا تتصل!! يرسل لها ولا ترد!! اتصل عليها، هاتفها مغلق!! حاول الاتصال بابتسام، ولكنها هي الأخرى لم ترد. زاد قلقه، أصابه الأرق، ماذا جرى لهما؟! كان قد جهز كل ما يلزمه للسفر، وبقي أسبوع آخر على حصوله على تأشيرة السفر إلى بريطانيا، كل ما بحوزته من مال أنفقه على التذاكر والتقديم على تأشيرة السفر، اضطر لبيع بعض أثاث غرفته. انتظر إلى اليوم التالي، لم يصله أي رد. وبعد

انتظار يومين آخرين، تصله رسالة من ابتسام: «ضروري نلتقي!» وحددت له المكان، كانت شقة دلال. ذهب إليها، فتحت له دلال الباب، كانت قد عرفت بكل ما جرى ويجري، دخل وجلس. جاءته ابتسام، دموعها لم تجف بعد، وجهها شاحب، آثار القهر بادية، ولم تنم لأيام، كان ذلك واضحًا. يسألها أحمد:

- ماذا جرى؟! أخبريني؟ لماذا تبكين ولماذا لم تردوا علي؟

- منال قُتلت. ثم استغرقت في نوبة نحيب، تلطم وجهها، تبكي بحرقة.

- صعق أحمد، لم يصدق ما قالته للتو. ماذا تقولين؟!

- قتلوا ابتسام، أهلها قتلوها!! عرفوا كل شيء.

- أحمد: ماذا حدث بالتفصيل؟! تحدثي أرجوك.

- قبل خمسة أيام كان موعد ذهابنا إليه كالمعتاد. منال لم تستطع أن تذهب لعارض صحي تزامن مع موعد طمثها، قررت أن أذهب أنا. وصلت إلى قصره، انفجر غضبًا عندما عرف أنها لم تأت معي، فرغ غضبه فيّ، انتهكني، مزق ملابسي، اغتصبني، بصق علي، كان يصفعني ويجلدني، ويأتي بعبيده ليغتصبوني بعده، ثم رموا بي عارية في الشارع، لا علي سوى عباءتي. قال لي قبل أن يخرجوني: «أخبريها أنها هي من جنت على نفسها». فار دم أحمد غضبًا، جحظت عيناه، سقطت دمعة على ظهر يده، مسحها، وقال: أكملي، ماذا فعل؟

- ابتسام: أرسل المقطع المصور إلى شقيقها. كان قد حصل على جميع أرقام عائلتها من هاتفها أثناء اغتصابها أول مرة. وقبل ثلاثة أيام بالضبط كنا نتحدث على الهاتف، وإذا بخبط شديد مرعب على باب شقتها، هي لوحدها، قالت لي: من هذا يا ترى؟! لم تعرف شيئًا بعد، لم أقل لها ما قاله لي بالضبط، لم أفهم معنى ما قاله، ولم أتوقع أن يحصل كل هذا. قالت لي: لا تقفلي الخط، سأفتح الباب وأعود.

بقيت على الخط، اشتد صوت خبط الباب، فتحته، وصرخت بأعلى صوتها فور فتحها له، كان شقيقها. أقفل الباب ودفعها إلى الداخل، حاولت الهرب إلى الحمام أو المطبخ، تحاول إغلاق الباب على نفسها، ولكنه تمكن منها. علا صراخها المليء بالرعب، لا أنساه ما حييت، انهال عليها بالسكين طعنًا وهو يقول: جلبت العار لنا يا عاهرة، يا قذرة، يا كافرة، جلبت العار لنا، يا ملعونة. خفت صراخها، توقف... انتهت. خرج، سمعت صوت غلق الباب بعد خروجه. صحت في الهاتف، ولكن انتهى كل شيء. كل ذلك حدث في دقيقتين لا أكثر. اتصلت بالشرطة وأبلغت عن الحادثة ومكانها، وصلوا إلى المكان، أخذوا الجثة، اتصلوا بأهلها، قالوا: ليست ابنتنا، أعطوا الكلاب جثتها. والقاتل أُعفي عنه من والدها، قضية شرف.

أحمد يكاد يفقد وعيه، أعطته دلال كوب ماء، صمت لبرهة. لم يستطع الحديث، لا يدري ماذا يقول.

- دلال: حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله على الظالم، حسبنا الله عليه. وتبكي هي الأخرى، ولكنها تبدو أقل انهيارًا من ابتسام، بدت متماسكة.

- أحمد: هل أنتِ مستعدة للهرب معي؟ يسأل ابتسام.

- ابتسام: نعم، ولكن كيف؟!

- أحمد: وأنت يا دلال؟!

- دلال: لا، لن أبرح أنا مكاني، سأموت هنا. اذهب أنت وابتسام، الحياة تنتظركما، لا يجب بحال أن تظل هذه الجرائم طي الكتمان، كأن لم تقع ولم تحصل. اهربوا وأخبروا العالم بكل ما جرى وما يجري. أنا أنتظر لقاء ربي، لم يعد في العمر بقية، ونفسي ملت هذه الحياة، لم يعد فيها شيء يثيرني. أود الموت. اليوم، الساعة، الآن.

- أحمد: سنذهب غدا إلى مكتب التأشيرات، تجهّزي. سآتيك الساعة التاسعة صباحا، جهّزي كل وثائقك. يقول لابتسام.

- ابتسام: سأكون في انتظارك.

(19)

غادر أحمد مسرعا عائدا إلى البيت، تسأله أمه: «أين كنت؟» يقول: «كنت أبحث عن عمل جديد، ووجدت وظيفة جيدة، ولكنها في خارج البلد، وربما أضطر إلى الذهاب إليهم قريبا لأجري مقابلة التوظيف». تقول له أمه: «الله يسهل لك دربك» دون أن تزيد حرفا. لم تتعمق ولم تطلب أية تفاصيل. لدى أحمد إخوة أصغر منه، يعتمد عليهم في غيبته. أخبر شقيقه الأصغر منه مباشرة بأن ينتبه إلى أمه، وأوصاه بأن يبقى على تواصل دائم معه من فترة لأخرى. كان أحمد مستعدا للحظة الرحيل، غدا يأخذ ابتسام لتنهي إجراءات التأشيرة، ثم يحجزون تذاكر السفر.

وهذا ما حدث، استيقظ عند الفجر، لم ينم جيدا تلك الليلة، صلى الصبح، بقي في غرفته يكتب حتى الساعة الثامنة، ثم انطلق إلى بيت دلال، وصل فوجد ابتسام جاهزة تنتظره. أخذها وانطلقا إلى وجهتهما، أنهيا كل شيء، وحجزا تذاكر السفر.

وقبل أن تنزل، عندما وقف أمام بيت دلال عائدين، التقط يدها، التفتت ابتسام إليه.. لم يقل شيئًا ولم تقل هي شيئًا كذلك. كان سينطق بشيء ما ولكنه تردد. بقيا صامتين

للحظات، وهو ممسك بيدها، وينظر في عينيها دون أن يقولا شيئًا، ودون أن تسحب يدها من قبضته.

بعد أسبوع آخر، صدرت التأشيرة الخاصة بابتسام، وأحمد صار جاهزًا. رحلة سفرهما بعد أربعة أيام. حزمت ابتسام حقائبها، أمضت تلك الأيام الأربعة مع دلال، أرادت أن تقضي آخر أيام العمر معها. لن تراها بعد ذلك، كانت بمثابة الأم، اعتنت بها منذ كانت في السابعة من عمرها. ربتها ورعتها وأحسنت إليها. أحبتها ابتسام كما لم تحب شخصًا آخر، تعلقت بها، حتى بعد كل ما جرى، كانت دلال واقفة إلى جانبها، تعرف أنها مظلومة، ومكرهة، لا مختارة، وإن كانت عاجزة عن فعل شيء، ولكنها احتوتها ووقفت معها وساندتها إلى آخر لحظة. قلائل في الحياة هم أمثالها، كانت دلال من نوادر الزمن. أمضت هي وابتسام الأيام الأربعة تلك في السهر سوية، أرادتا أن تشبعا من بعضهما، مع علمهما باستحالة ذلك، كلتاهما متعلقة بالأخرى. ابتسام جزء من دلال، ودلال جزء من ابتسام، إذا تركتها ستموت، كفقد العضو الذي يدفق الدم في الجسد، هل يعيش صاحبه؟ لم يبق لدى دلال ما تعيش من أجله. كانت ابتسام هي الحياة بالنسبة لها. لو لم تظهر ابتسام في طريق دلال، لربما قتلتها الوحدة، والكآبة، ووحشة الدنيا وضيقها منذ أكثر من عقد ونيف من الزمن.

(20)

غدا رحلة أحمد وابتسام، كان آخر يوم لهما في هذا البلد الكئيب، التعيس البئيس الظالم أهله. استيقظ أحمد اليوم بروح متوثبة، ممتلئًا إصرارًا على كشف الحقيقة، على إكمال روايته، وعلى نشرها على أوسع نطاق. ظل في غرفته على مكتبه يكتب حتى قبيل الأذان الأول، لقد كتب كل ما سمعه وما عرفه عن الواقع الذي تعيشه نساء هذا البلد، أصبح لديه مادة جيدة للنشر الآن، أكثر من مئة صفحة. توقف عن الكتابة، قام ليتوضأ، ثم ارتدى أجمل ثيابه، ووضع عطره المفضل، ثم توجه مع والده وإخوته نحو الجامع الكبير في الحي. لم يكن أحمد يتوقع ماذا ينتظره.

رآها على الرصيف جثة ملقاة، لم يقترب منها أحد طوال الليل وحتى منتصف النهار، ملقاة كأنها غير ملقاة. كأن لا شيء على الرصيف، أو كأن المشهد غير جديد، لم يستفز في السائرين نحو الصلاة شيئًا، لم يأبهوا لها.. قتلت، وماذا نفعل؟! الله يتولى أمرها، هذا منطقهم!! انتهى كل شيء، ضمها إليه في حضنه، وظل ينوح، ينوح، يضرب الأرض، يلطم الوجه، يمزق الثوب، ويلعن الخنزير بأعلى صوته. لقد عرف كل شيء.

(21)

يوم الخميس، استيقظت ابتسام، أطرقت في سقف غرفتها قليلا، ثم قامت. كان وجهها يشع نورًا، حياة جديدة تنتظرها. استحمت وكانت تترنم وهي تحت الدش بصوت شجي، تستشعر بقية الأمل فيه، والألم أيضا. كانت سعيدة كما لم تكن من قبل، أخيرًا ستغادر الزريبة، أخيرًا سيعرف العالم الحقيقة. ارتدت أجمل ملابسها، أيقظت دلال من نومها، احتضنتها، ظلتا في الفراش معا لساعة من الزمن، تفلي شعرها بأصابعها، تغني لها، تلتصق بجسدها بشدة. تدرك أن الوقت ينفد، لن تراها مجددا. شعور لا يضاهيه في الغرابة شعور آخر؛ تدرك أنها آخر لحظات العمر مع من تحب، أرادت أن تفعلا كل شيء معًا.

نهضت دلال من السرير، صنعت أجمل إفطار على الإطلاق، وجلست هي وابتسام في شرفة شقتها تتناولان آخر وجبة إفطار سوية، آخر جلسة معًا، آخر ضحكة، وآخر عناق. قررت ابتسام أن تأخذ دلال في نزهة في الحي، ثم إلى الأسواق المجاورة، ثم إلى البحر حيث لم يكن بعيدًا، تحب المشي بمحاذاة البحر على شواطئ تلك المدينة السليبة، الحارّة، التي

لا يعرف العالم عنها، ولا ما يجري فيها شيئًا. كان يومًا لم يفقه في الروعة والغرابة يوم على الإطلاق.

عادتا بعد يوم طويل، بعد مرح وجري على الشاطئ وسباحة بعباءتهما في البحر، ضحكتا معًا، ورقصتا دون أن يراهما من المتشنجين الموتورين أحد. كان أجمل يوم في حياتهما على الإطلاق، كان آخر يوم في هذه الحياة. الساعة الثانية بعد منتصف الليل، نامت دلال، وابتسام لا تزال مستيقظة، لم تنم كأن أرقًا أصابها.

اتصال من أحمد فجأة:

- اخرجي، أنا عند الباب.

- ابتسام: من أنت؟! لم تنتبه لرقمه، وكأنها لم تعرف صوته لأول وهلة، لم تسجل بعد اسمه في هاتفها.

- أحمد: أنا أحمد، ألم تعرفي صوتي؟!

- ابتسام: أعتذر، لم أنتبه، حسنا سأنزل الآن. أنا أسفل العمارة الآن، أين أنت؟

- أحمد: امشي للأمام قليلا، ها أنا ذا على الشمال، هل رأيتيني؟!

- ابتسام: نعم، رأيتك.

كان مشتاقًا لها، لم ينم، قرر أن يأتي إليها بنفسه، صعدت معه في سيارته.

- ابتسام: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟
- أحمد: شعور غريب، شيء ما أيقظني وقال لي اذهب إليها، إن كنت تحبها فاذهب إليها الآن.

ابتسام صامتة، لم تستطع أن تنظر إليه، شعرت بخوف.

- أحمد: لقد أحببتك منذ أول مرة رأيتك فيها، أعلم أنك لم تأبهي بي، ولم تلتفتي إلي، وربما لا تشعرين تجاهي بما أشعر به تجاهك، ولكني نهضت من سريري لآتي إليك وأقول، إنني أحبك. فقط. قبل أن يفوت الأوان.

ثم قبّلها على خدها، وأطال مدتها، تنفس عبقها، لم يشأ أن تنتهي تلك اللحظة، تمنى لو تجمد الزمن عندها. ثم نزلت من سيارته دون أن تنطق بكلمة واحدة، ورحل.

عادت لتنام، ولكن النوم أبى أن يزورها تلك الليلة. شيء ما ينتظرها، تشعر أن شيئًا ما يوشك أن يحدث. خرجت إلى الشرفة، استنشقت نسيم السحر، كان الجو معتدلًا، غير حار كما في النهار. بقيت هناك لنصف ساعة، وإذا برقم آخر يتصل:

- «الووو، الووو، ابتسام؟»
- ابتسام: «نعم، من معي؟»
- «طويل العمر، أرسل سيارة الآن، كوني جاهزة!!»
- ابتسام: «دقيقة، دقيقة، من أنت، وأين أنتظر؟!!»

أغلق الخط، وما هي إلا دقائق حتى وصلت السيارة التي كانت تأخذها مع منال كل أسبوع. كان قد توقف عن الاتصال بابتسام منذ مقتل منال. نزلت مسرعة، لا تريد أن يعرفوا مكان شقة دلال، وراحت تقف أمام مبنى آخر في الشارع المقابل. اتصل مرة أخرى: «أين أنتِ؟» رفعت بيدها تلوح له «هنا في الجانب الآخر»، تقول له. صعدت وأخذوها إلى القصر.

اعتقدت أن الأمر لن يستغرق أكثر من الأربع إلى الخمس ساعات كما تعودت. لقد شعرت ابتسام أنها بدأت أولى الخطوات في حياتها الجديدة، ولكنه لم يسمح لها بإكمالها. أمرها بخلع عباءتها وملابسها؛ رفضت ككل مرة. أدخل العبيد (الحرس) وأجبروها على نزع ملابسها كلها، ثم انهال عليها كعادته السادية صفعًا ورفسًا وركلًا، اغتصبها ككل مرة. لم يتغير شيء، لا جديد حتى الآن. كانت تصرخ وهو فوقها، انفلتت كلمة واحدة من لسانها، كلمة واحدة استفزته، فجّرته غضبًا أنهت كل شيء. قالت: «يا ويلكم من الله»، وظلت تكررها وهو يفترسها. لم يستوعب معنى ما قالته؛ هو مدرك ومتيقن أنه لن يتعرض لحساب الدنيا، ولكنه ظن أن لا حساب في الآخرة أيضًا، هو لا يؤمن بها أصلاً.

- «الويل لنا ممن يا قحبة؟! الويل لنا ممن يا عاهرة، يا مملوكة؟! يا عبدة.» يصرخ بذلك، ومستمر بصفعها. ثم بعد أن

تعب، وكانت ابتسام على وشك مفارقة الحياة، قام منها وفتح غرفة صغيرة أخرى، ودعا عبيده: «خذوا القحبة وعلّقوها». أخذوها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. كانت غرفة مخصصة للشنق. شنقوها، لتَموت مرتين. ماتت على الفور.

أمر عبيده: «ضعوها في صندوق السيارة» وقرر هذه المرة أن يرافقهم. توجهوا نحو الحي الذي يسكن فيه أحمد، حيث الجامع الكبير الشهير، جامع الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود. خرجت معه أكثر من عشرين سيارة مرافقة، في موكب طويل، حتى وصلوا إلى هناك. نزل العبيد بالقرب من الجامع، ثم ألقوا بجثة ابتسام على الرصيف، ونزل هو بعد ذلك، رأى الناس ينظرون إلى المشهد من نوافذ بيوتهم، أيقظهم طنين موكبه، لم يهتم بهم، اقترب من جثة ابتسام، وقال: «هذا مصير من يتجرأ على أسياده»، ثم بصق على جثتها.

لم يخرج أحد من بيته، تسمّروا في غرفهم، عادوا ليكملوا نومهم، تركوا الجثة كما هي. انتهى كل شيء، هكذا ببساطة.

(22)

بعد أسبوعين، أفاق أحمد من غيبوبته؛ لم يتذكر شيئًا ليومين آخرين؛ ظل يحدق في أهله ومن حوله دون أن ينطق بكلمة. أصابته صدمة، وظل لا يتحدث لأشهر لاحقة. بعد يومين، تذكر بعض الأشياء، لكنه لم يستطع أن يتحدث. طلب ورقة وقلمًا، لم يكتب سوى هذه الجملة: «أين جثة ابتسام؟» قالوا له: «لقد دُفنت». لم يكتب شيئًا بعدها، وبقي ساكتًا لأربعة أشهر قبل أن تعود له القدرة على الكلام مجددًا.

لم يفعل شيئًا في تلك الأشهر سوى الكتابة. خرج بعد ثلاثة أيام من إفاقته من الغيبوبة وعاد إلى بيته، وبقي في غرفته يكتب دون توقف. لقد عرف أن الأمير هو الذي قتل ابتسام، وكل من في الحي عرفوا ذلك بعد أن رأوه وهو يرمي جثتها على الرصيف المقابل لمدخل الجامع الكبير ويبصق عليها. كما عرف لاحقًا أن دلال لم تفق من نومها تلك الليلة، ماتت مع ابتسام، أو قبلها بقليل ربما.

لم ير أحمد ما حدث، بيته أبعد ولا يطل على ذلك الشارع الذي فيه الجامع، وإن كان قد سمع ضجيجًا ودوي مركبات كثيرة قبيل الفجر، ولكنه لم يخطر بباله شيء مما حدث. أمّا أهل

الحي من ذلك الشارع فقد رأوا كل شيء دون أن يعلّقوا أو يتحادثوا حول ما رأوه.

لقد كتب الكثير، حكى كل التفاصيل التي يعرفها وكل ما سمعه من منال وابتسام. هو أيضًا يعي ما تعانيه النساء عمومًا، وحكى قصص نساء أخريات أيضًا في روايته. من القصص التي أثرت به أيضًا ولا تزال عالقة في ذاكرته، هي قصة سارة الخياطة التي تسكن في ذات الحي. امرأة في الخمسين من عمرها، لم تخرج من منزلها قط إلا في حالات الطوارئ القصوى لا غير. كانت تجيد الخياطة. يرسل كل سكان الحي إليها ثيابهم، ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا. ظلت تخيط الملابس وتصلحها منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها. لم تدرس، ولم تخرج من البيت. تعلمت الخياطة من والدتها التي كانت هي الأخرى حبيسة بيتها.

كان كل ما تجنيه من عملها يذهب إلى جيب زوجها إمام المسجد، الشيخ صالح. يعتبر أن ما تجنيه من عملها هو حق له هو، كونه زوجها الذي يسترها ويصرف عليها، وكان أكثر ما يردده على مسمعها، هي تلك المقولة الشهيرة: «لو كنت آمِرًا أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

ذات مرة، ذهب إليها أحمد وهو صغير بملابس أرسلته بها أمه لتخيطها. سألته: «هل يمكنك أن تأتي لي ببعض الأشياء من

دكان الحي؟» أجابها على الفور: «نعم يا خالة»، ولكنه كان مستغربًا ويتساءل: «لماذا لا تذهب هي بنفسها؟ لم أرها خارج البيت ولا مرة! والمحل ليس بعيدًا، هو في المبنى المجاور لبيتها، قريب جدًا». ذهب وأحضر لها ما طلبت منه، ولما عاد قرر أن يسألها: «خالة سارة، لماذا لا تخرجين إلى الدكان؟ لم أرك قط خارج البيت!» قالت بنبرة منكسرة: «الشيخ صالح ما يرضى».

أصاب أحمد نفور منه بعد أن عرف ذلك، كان منخدعًا به لأنه لم يره يومًا إلا مبتسمًا، يداعب الأطفال، يصطنع التواضع والرحمة، يحاول تصوير نفسه على غير حقيقتها. كان كائنًا مُجرّدًا من الرحمة وأبعد ما يكون عن قيم القرآن ومعانيه. كما أنه عرف بعد ذلك أن الشيخ نفسه صاحب الصوت العذب الشجي في تلاوة القرآن، عرف أنه من بطانة أمير المنطقة، وأن الأمير لا يطلب غيره في كل رمضان ليصلي بهم التراويح في مسجد القصر في الإمارة، ذلك أن لكل قصر مسجده الخاص وإمامه المختار أيضًا. كما في كل قصر أيضًا، جانب آخر يغص بصنوف المسكرات والمخدرات والرشاشات، وفيه غرف للتعذيب والشنق والاغتصابات. ومع ذلك، فإن الأمراء بشكل عام محافظون على صلواتهم بشكل ملحوظ.

من الأشياء التي لاحظتها منال وهي تحكي لأحمد قصتها عند رؤيتها لغرفة الأمير أول مرة، هو وجود نسخة مطبوعة بعناية فائقة ومجلّدة بأفخم أنواع الأغلفة لكتاب التوحيد للشيخ النجدي محمد بن عبد الوهاب على مكتبه الباذخ. كان الأمير سعود يعتبر نفسه أحد حراس عقيدة التوحيد، ولطالما ردد مقولته: أن مملكتهم هذه إنما قامت على عقيدة التوحيد الخالص النقي كما أنزل على قلب ابن عبد الوهاب، وأن الله وضع على عاتقهم مهمة قود الناس إلى عقيدة التوحيد، وحراسة هذه العقيدة وتصديرها للعالم أجمع، ذلك لأن من لم يتبعها عُدّ كافرًا، ومن كان ذلك حاله يستتاب ثلاثًا، فإن أبى يُقتل.

ظلت سارة الخياطة في بيت زوجها حتى ماتت كآبة وضنكًا. سقطت بجانب ماكينة الخياطة في بيت زوجها الذي لم تعرف غيره مكانًا في حياتها. كانت حياتها متوزعة بين هذه المهام: تخيط، تطبخ، تنظف، وتنام مع زوجها عند رغبته في وطئها؛ فإذا فرغ، قام عنها متنجّسًا. كانت لا تجيد في الحياة سوى تلبية أوامر الشيخ صالح. لم يمر على موتها تسعة أيام حتى شرع الشيخ في البحث عن زوجة جديدة كي يطئها. تزوج أخرى وأسكنها مكان سارة.

جاءت إلى هذه الحياة ورحلت حبيسة، ماتت ولم تعرف شيئًا، وعاشت لا تعرف غير زوجها وماكينة الخياطة. لقد أثرت

قصتها في أحمد؛ لم يقدر حتى اللحظة أن يستوعب كيف صبرت عمرها كله دون أن تتمرد وتعترض على وضعها ذاك. لم يستطع حتى مجرد تخيل كيف يولد الإنسان ويعيش ويموت دون أن يخرج من بيته، والسبب لأنها أنثى!

(23)

أصبح أحمد جاهزًا لنشر كل ما كتبه على مدى الأشهر الماضية؛ كانت قد انتهت صلاحية تأشيرته التي كان قد استخرجها مع ابتسام. قرر أن يتقدم بطلب جديد، باع سيارته كي يتمكن من شراء تذاكر الطيران. وما هي إلا عدة أسابيع حتى حصل على تأشيرة جديدة. صار مستعدًا للرحيل، رحيل لا تعقبه عودة. تسلل في الليل من دون أن يشعر به في البيت أحد، أخذ سيارة أجرة واتجه نحو المطار. ساعة متبقية على موعد رحلته. صعد الطائرة لأول مرة، وكانت آخر مرة يرى فيها مدينته من فوق، من السماء.

لأول مرة يسافر خارج البلاد؛ وصل بعد 9 ساعات إلى مطار هيثرو في العاصمة البريطانية لندن. تقدم بطلب اللجوء فور وصوله إلى المطار. لم تكن رحلته الجديدة سهلة كما كان يظن. بدأوا في استجوابه في المطار، امتدت الجلسة إلى قرابة 6 ساعات متواصلة. «ما سبب لجوئك؟» سأله ضابط المطار. «نشر كتاب»، يقول له. لم يقتنعوا إلا بعد أن شرح لهم ما احتواه الكتاب وخلفيته وكل تفصيل فيه. تعاطف بعضهم معه، وأخذوه

بعد الاستجواب، إلى مكان مخصص لطالبي اللجوء، أي الذين لم تُقبل طلبات لجوئهم بعد، لحين البت في قضيته.

أقام في ذلك المكان، وهو عبارة عن مبنى سكني مكوَّن من 7 طوابق، كل طابق فيه ثلاثون غرفة، غرف صغيرة جدًا بالكاد تتسع للسرير الواحد والمرحاض. بقي هناك لعامين، كان ممنوعًا من العمل طوال تلك المدة ككل طالبي اللجوء، لا يُسمح بالعمل إلا لمن قُبل لجوؤه. ليس في حوزته سوى مئتي ريال. كان الطعام سيئًا للغاية، ظل يتقيأ أول شهرين عند تناول أي وجبة حتى اعتادت معدته وذوقه على جودة ومستوى ونوع الطعام الذي يُقدَّم في ذلك المكان. ولكنه مع ذلك، فقد استفاد كثيرًا؛ لقد تعرّف على الكثيرين هناك واستمع إلى قصصهم ومعاناتهم وكيف انتهى بهم المطاف إلى ذلك المكان الأشبه بالسجن.

اكتشف أن في المبنى كثيرًا من الفتيات الهاربات أيضًا من بلده. بعضهن لم يتجاوزن العشرين من العمر. كان حينما ينزل إلى الطابق الأرضي في مواعيد الوجبات، يرى مجموعات منهن، قرر أن يتقرب منهن، يود الاستماع إلى قصصهن، ذلك لأنه قرر أن يؤجل نشر كتابه لعدم قدرته المادية على الطباعة والنشر، ويضيف فيه فصلًا خاصًا من قصص هؤلاء الهاربات بعد أن عرف بوجودهن، وبأعداد كبيرة.

ذات صباح، استيقظ أحمد، صلى الفجر ثم نزل مباشرة ليشرب ماء من البرّادة. لم يكن قد استيقظ إلا أفراد قليلون. وجبة الإفطار عبارة عن بعض الشوفان مع بعض الحليب وقطع من الموز. شرب كوبًا من الماء ثم أعدَّ له طبقًا من الشوفان بالحليب وقطع الموز غير المستوي بعد. طعمه لا بأس به، اعتاد عليه.

في الطابق الأرضي مقاعد كثيرة وطاولة طويلة موضوعة بجانب نافذة المطبخ، عليها الطعام والحليب والسكر والشاي. في موعد وجبة الغداء خصوصًا يتكوّم الناس فوق بعضهم عندها، طوابير طويلة. كان لا يتناول أحمد إلا الفطور فقط، لا يحتمل الوقوف طويلًا في الطوابير.

لاحظ بعد أخذ طبقه فتاةً جالسةً على أحد المقاعد، تشرب عصيرًا وتنقر بأصابعها على جهاز حاسوب صغير معها. مرَّ بجانبها، «صباح الخير»، قال لها، فردَّت عليه. اكتشف أنها من الجزيرة العربية. في الثانية والعشرين من عمرها، مضى على وصولها إلى لندن 10 أشهر، قُبل لجوؤها يوم أمس، وتشعر بشيء من الاطمئنان، لكنها قلقة من العيش وحيدة بقية عمرها. وكذلك لم تتعلم اللغة الإنجليزية بعد، وجدتها صعبة، وهي مشتتة ذهنيًا وغير مستقرة، وليس لديها الجَلَد النفسي والبدني للدراسة والعمل. ولأنها أصبحت لاجئة لا طالبة لجوء، فهي مطالبة

بالبحث عن عمل، وإلا ستُقطع عنها المعونة الشهرية التي لا تسد حاجتها أصلًا.

سألها أحمد:

- هل تمانعين إذا جلستُ معكِ؟

- لا، تفضل.

- اسمي أحمد، طالب لجوء وكاتب مهتم بقضايا المرأة.

- أهلًا بك، سررتُ بمعرفتك.

- ما سبب لجوئكِ؟

- مثل سبب معظم الفتيات هنا؛ كنتُ من حبيسات المنازل، وتعرّضتُ للعنف الأسري لسنوات طويلة، وحُرمتُ من دخول الجامعة بل حتى من إكمال التعليم العام. فصلوني من المدرسة عندما أنهيتُ المرحلة الإعدادية. شاءت الأقدار أن أنجح في الهرب ووصلتُ إلى هنا.

- أحمد: وكيف نجحتِ في الهرب؟!

- لقد كان الأمر صعبًا، وشديد التعقيد، لم أستطع في البداية استصدار جواز سفر إلا بعد مدة طويلة، وبتخطيط وصبر وتحيُّن للفرص، حيث كان لا بد من موافقة من ولي أمري (والدي)، حتى أستطيع استصداره. لاحت أمامي الفرصة ذات يوم؛ فعزمت على الذهاب إلى مبنى إصدار الجوازات بعد تردد وتوجس. جئتهم، قدمت الطلب، وأخذوا الصور، ثم أرسلوا رسالة إلى

والدي لإشعاره بالطلب. عدت مسرعة؛ تسللت إلى غرفته وأخذت هاتفه لأوافق على الطلب ثم حذفت الإشعار من هاتفه، لم ينتبه لشيء. انتظرت عدة أسابيع حتى حصلت عليه، كنت أتسلل من البيت خلسة في الصباح وأعود بعد ساعة أو ساعتين وهم لا يزالون نائمين. فعلتها مرتين في مرحلة استصدار الجواز، ولم يدرِ أحد بي. انتهيت من مشكلة الجواز، والآن انتقلت إلى مرحلة التقديم على تأشيرة دخول إلى بريطانيا، وكان ذلك مكلفًا وأكثر تعقيدًا. حاولت أن أجد فرصة، ولكن فشلت. انتظرت طويلًا، ولم تتيسر الأمور، ولم أجد أي فرصة.

كان والدي يعاني من مرض نادر، عانى منه سنين طويلة، لم يجد علاجًا له في البلد، وقيل له باحتمال أن يجد له علاجًا لدى طبيب متخصص في مستشفى في أسكتلندا. حضّر نفسه، ومعه أخي الكبير، ذهبا إلى مركز استصدار التأشيرات البريطانية، ولم تستغرق سوى أسبوعين، كان الطلب مستعجلًا. بقي عشرةَ أيامٍ على موعد السفر، ولكن كان أن استُدعي أخي على عجل إلى عمله؛ كان ضابطًا في الجيش. قال لهم إنه ذاهب مع والدي كمرافق ولا يمكنه أن يتراجع، ولكن رفضوا عذره رفضًا قاطعًا، وإن لم يمتثل للأمر عوقب كعاصٍ لأوامر أسياده في الجيش، وليست العقوبة بشيءٍ أقلَّ من الإعدام بالطبع. قال له والدي: «لا عليك، ابقَ أنت، سأذهب وحدي ولن يطول بقائي هناك؛ مجرد

أسبوعٍ فقط»، كان قد حجز موعده مع الطبيب هناك، وهو عبارة عن موعد فحصٍ أوليٍّ لا أكثر.

رفض أخي ذلك، وأصرّ على مرافقته، لكن والدي قال له: «حسنًا، سآخذ أختك معي، لا عليك». (ولم يقل سيأخذ أخي الأصغر لأنه لا يستطيع أن يترك والدتي بدون ذكر في البيت). فاستشاط غضبًا، ورفض، ولم يقتنع إلا بعد إصراره عليه. أخذني إلى مركز التأشيرات، وكان يتوعدني طوال الطريق ونحن ذاهبين، وأيضًا ونحن عائدين: «لو فكرتِ في الهرب، سأصل إليكِ وأفصل رأسكِ عن جسدكِ»، يقول لي. خلال 8 أيام حصلتُ على التأشيرة، وكذلك تذكرة الطيران. بقي يوم على السفر. ساعات تفصلني عن الهرب من هذا الجحيم. وفجأة، نسمع طرقًا على باب البيت؛ عاد أخي، وسيكمل الرحلة مع والدي. «اجلسي أنتِ هنا»، قال لي. تلاشت كل أحلامي فجأة. سأبقى هنا حتى الموت!! لا يا إلهي، لا أريد الموت هنا، لا بأس، خذ نفسي، ولكن ليس هنا، أرجوك يا الله. سافرا وبقيت أنا مع أمي وأخي الصغير (عمره 11 سنة). «لا أمل في مغادرة هذا الحبس الأبدي»، قلت في نفسي. عدت إلى غرفتي ولم أخرج منها ليومين متتاليين؛ قضيتهما نائمة. استيقظت وأنا أكثر إصرارًا على الهرب، أكثر من أي وقت مضى، إصرار عجيب.

لا تزال التأشيرة صالحة لعدة أشهر، لم يكن والدي وأخي يعلمان بذلك، اعتقدا أن صلاحيتها تنتهي مع موعد سفرهما لا أكثر، كانت أول مرة يسافران فيها إلى خارج البلد. ولم أكن حتى أنا أعلم، ولكن عرفت ذلك من خلال بحثي على الإنترنت. قلت لنفسي: هذا عظيم، لدي جواز السفر الآن، ولدي التأشيرة، بقي أن أحجز تذكرة الطيران. كان معي بعض المال، اشتريت به التذكرة، أقرب رحلة كانت توافق اليوم الذي يعود فيه أخي ووالدي. تجهزت، وأمضيت الأيام التي تفصلني عن موعد الرحلة في قلق وتوجس شديدين، لم أكن أنام في الليل، مرعوبةً مما قد يحصل لو لم تنجح خطتي.

جاء اليوم الأخير لي، تجهزت سريعًا وخرجت بهدوء في الخامسة صباحًا، لم يستيقظ أحد في البيت بعد، كان يوم عطلة. أخذت سيارة أجرة (تاكسي) وتوجهت نحو المطار بسرعة. وصلت هناك، تبقى ساعة ونصف على موعد الرحلة. أوقفوني، قال ضابط الجوازات:

- إلى أين مسافرة؟

- إلى البحرين. قلت له. كانت الخطة أن أسافر إلى البحرين ثم منها مباشرة إلى بريطانيا، وهذا ما تم.

- هل معك إذن من ولي أمرك؟

- نعم.

- أين هو؟
- قلت: اتصل به إن شئت، هذا رقمه. قلتها وناولته هاتفي. الرعب ينهشني من داخلي.

نظر إليّ، حملق في عينيّ لثوانٍ، ثم قال: امشي، لا بأس.

لم أصدق ما قاله، مررت فورًا واتجهت إلى صالة الانتظار، كل دقيقة تمضي تعني قرب لحظة النجاة، تمنيت لو أنني كنت أستطيع تسريع عقارب الوقت في تلك اللحظة.

نداء الصعود.. فُتحت أبواب الصعود إلى الطائرة، فتوجهت أولَ المسافرين. لا أكاد أصدق أن هذا يحصل. الساعة السابعة والنصف صباحًا أقلعت الطائرة. حطّت في البحرين لساعتين أخريين، وهناك نزلت (ترانزيت) وصعدت إلى الطائرة الأخرى. فور جلوسي في مقعدي نمت نومة عميقة، كما لو كنت لم أنم في حياتي من قبل.

وصلت إلى هنا، لم أستيقظ إلا عندما هبطت الطائرة وبدأ المسافرون في النزول. تقدمت بطلب اللجوء في المطار، ثم بدأت الإجراءات التي تعرفها. وصلت إلى هذا المكان، وقبل يومين اجتزت مقابلة اللجوء الثانية. وحصلت أخيرًا يوم أمس على حق اللجوء والإقامة. اطمأننت قليلًا، ولكن لا أزال قلقة من المستقبل، لا أدري ماذا ينتظرني.

ظلّ أحمد يُصغي إليها طوال حديثها، لم يقاطعها. قال لها بعد أن انتهت: هل تسمحين لي بأن أضمّ قصتكِ إلى قصة ابتسام ومنال وبقية النساء في روايتي؟ قالت له: بكل تأكيد. شكرته على لطفه وحرصه على رفع أصوات الضحايا وتخليد قصصهنّ.

جلس مع الكثيرين واستمع إلى قصصٍ ومآسٍ كثيرة، ودوّن بعضها في روايته. بعد انتظارٍ لعامين في ذلك المكان، حصل أحمد أخيرًا على حق اللجوء والإقامة، وكان قد اكتمل كتابه. عثر على ناشرٍ له بعد عناء بحثٍ طويل. صدرت أولى طبعاته خلال ثلاثة أشهر من إرساله إلى الناشر. لاقى رواجًا واسعًا، ولكن لم يأبه له الشعب في داخل البلد، في حين تناقلته الصحف ووسائل الإعلام ونشطاء حقوق الإنسان في بريطانيا وأوروبا بشكل عام وتفاعلوا معه، وتُرجِم إلى لغات عدة.

شعر أحمد بأنه قد أدّى جزءًا من مهمته، ولكنه مع ذلك يشعر بنوعٍ من الإحباط والخذلان. لم تستفزّ القصص في الشعب شيئًا. لقد خسر رهانه.

كان قد ضمّ كذلك إلى القصص في كتابه قصة زينب، شابة عمرها 24 عامًا، كانت تعيش في نفس المبنى الذي أمضى فيه أحمد العامين الماضيين. من الهاربات هي الأخرى. كانت من

حبيسات المنازل، وكانت قد تعرّضت للاغتصاب من قبل أحد أقربائها. هربت بعد أن وصلت (ترانزيت) إلى مطار غاتويك متجهةً مع أهلها إلى الرياض، حيث كانوا عائدين من رحلة علاج في بوسطن في أمريكا. هبطت الطائرة، نزلوا في المطار ليصعدوا إلى الطائرة التالية بعد أقل من ساعة ونصف. قالت زينب: «أريد دخول الحمام»، ذهبت وتركت أهلها في صالة الانتظار. ركضت نحو موظفي المطار: «أحتاج مساعدة، أحتاج مساعدة، أنا في خطر»، قالت لهم. وضعوها على الفور في غرفة خفية مخصصة لطالبي اللجوء في المطار، حتى غادر أهلها. حاولوا العثور عليها، عرفوا أنها هربت، فتواصلوا مع سفارة بلدهم في لندن، ولكنهم أُبلغوا بأن لا سلطة لهم في هذا الأمر، والأسلم لكم هو أن تتركوها وإلا اصطدمتم مع السلطات البريطانية.

لم تحتمل زينب العيش أطول مما احتملت، لم تعد بها قدرة على تحمّل هذه الحياة، زادت ظلمة الدنيا في عينيها وعقلها، فقدت إيمانها. حُبِست كل حياتها، التي لم تكن طويلة على أي حال، في البيت، ومن البيت فجأة أصبحت لاجئة في بلد غريبة وعلى عاتقها مسؤوليات لم تعتدها. حاولت أن تكوّن علاقات جيدة مع الفتيات هنا، ولكنها فشلت، لم تعرف كيف تتواصل مع الناس، فانكفأت على نفسها في غرفتها. لم يسأل عنها أحد، كان الموظفون يمرّون على الغرف كل ثلاثة أيام، يتفقدون من

فيها. كانت قد يئست من كل شيء، كتبت رسالة طويلة فيها عتاب أليم لأهلها، والمجتمع، والناس كلهم. كان لديها موقف حاد ضد البشرية جمعاء؛ وصفتهم بالأنانية والجشع والتوحش، وأكدت على انعدام الرحمة في هذا العالم، «لقد نُزعت من قلوب البشر».

نشرت تلك الرسالة المطوّلة، ثم غادرت الدنيا بهدوء.

فتح الموظفون الباب بعد ثلاثة أيام، فوجدوها جثة هامدة. ماتت ولم تُدفن؛ اتصلوا بسفارة بلدها، لكنهم رفضوا استقبال جثتها، ورفض الأهل استلامها أيضًا، ولم يكن هناك من هو مستعد لدفع تكاليف دفنها في بريطانيا، فأُحرقت. كان قد التقى بها أحمد عدة مرات وتحدث معها، لكنها كانت يائسة تمامًا وعاجزة عن التواصل بشكل طبيعي. فقدت الشغف تجاه كل شيء في الحياة. تأثر أحمد بما جرى لها بشدة، وظل في حالة نفسية صعبة لفترة طويلة بعد انتحارها.

(24)

حققت رواية أحمد نجاحًا باهرًا، وعادت عليه بعائد مادي جيد لم يتوقعه، مما جعله في غنى عن العمل في الوظائف محدودة الدخل. استقر وقرر أن يتفرغ للكتابة.

وبعد أشهر لمعت في ذهنه فكرة؛ قرر أن يطلق مبادرة تأسيس مركز دعم للهاربات من جحيم ما يسمى بـ«السعودية»، ممن تعرضن للاعتقال السياسي أو الحبس المنزلي والعنف الأسري أو الاعتداءات الجنسية أو من كنّ ضحايا لشبكات الدعارة المرتبطة بالأمراء، إلخ. تم الإعلان وفتح باب التبرعات، وبدأه أحمد لوحده بما كان لديه من مدخرات من عائدات روايته. كان المركز نشطًا جدًا، وكان صغيرًا في البداية، وفكرته باختصار أن يقدم الاستشارات والنصائح للمستهدفات، ويربطهن بالجهات الصحيحة في بلد اللجوء، ويقدم لهن الدعم القانوني اللازم، وكذلك يساهم في بعض الحالات الحرجة جدًا بالتكفل بمصاريف السكن لحين الحصول على الدعم الحكومي.

كما خصص لاحقًا، بعد أن توسع قليلًا، قاعات تتجمع فيها هؤلاء الفتيات لتبادل الأحاديث وتكوين العلاقات ودعم بعضهن وخلق جو من الدفء العائلي لهن. كما يعقد المركز ندوات

أسبوعية، ويقيم معارض لدعم الفنانات منهن، سواء الرسامات أو العازفات أو المغنيات أو الكاتبات... إلخ.

لقد حقق المركز شهرة واسعة، وكانت فكرته متميزة بكل المقاييس، حتى إن عدد الهاربات ازداد، ومصادر التبرع والدعم للمركز زادت أيضًا، مما ساهم في توسيع نشاطاته واستضافة خبراء عالميين في مجالات مختلفة: حقوقية وقانونية وصحية وتربوية ونفسية وسياسية وغيرها. شكّل المركز نقطة حراك ثقافي وسياسي وحقوقي حقيقي، وكان مقصدًا لكل النشطاء الحقوقيين، وأتاح للفتيات الحصول على كافة أشكال الدعم، وخاصة في مجال كتابة قصصهن وترجمتها ونشرها في كتيبات صغيرة الحجم يتكفل المركز بطبعها وتوزيعها. وكان يُباع منها الآلاف كل أسبوع، والجزء الأكبر من تلك العوائد المادية يعود إلى الفتيات أنفسهن وإلى المركز ذاته. لقد خلق لهن فرصًا كثيرة، ومنهن من تفوقن وأبدعن في المجال القصصي وتفرغن له.

صار هذا المركز يشكل نموذجًا فريدًا في العالم ومنارةً حقوقية وثقافية حقيقية. شعرت النساء فيه بأنهن وجدن البيئة الحقيقية التي تمكنهن وترفع أصواتهن وتدعمهن على كل المستويات، بما فيها الدعم المادي.

ولكن الحكومة السعودية لم تكن راضية عما يجري، بل أصبح هذا المركز بمثابة دولة معادية لها. لم تعد السلطات السعودية قادرة على التحمل، حشد المركز ضغطًا حقوقيًّا دوليًّا رهيبًا عليها، وجعل سمعتها في الحضيض، وإن كانت حضيضًا من قبل. تعرضت كثير من العاملات في المركز إلى محاولات اعتداء في لندن من قبل عملاء تابعين للمخابرات السعودية، ومنهن من أُصبن بجراح خطيرة بالفعل ونُقلن إلى المستشفى، وفُتحت تحقيقات بشأن ما تعرضن له. وكان أحمد، باعتباره المؤسس والمدير العام للمركز، يتلقى بشكل يومي تهديدات لا حصر لها، ولكنه مع ذلك لم يتوقف.

قرر النظام اعتقال والده وإخوته كي يبتزّه بهم، ولكنه استمر ولم يتوقف. قرر كتابة كتاب جديد أوضح فيه كل ما تعرض له على مدار سبعة أعوام منذ أسس هذا المركز، كما سرد مزيدًا من تفاصيل كثير من القصص الجديدة التي كانت نُشرت في صحيفة المركز الأسبوعية، وكشف أن أحد العملاء الذين حاولوا الوصول إلى مقر سكنه تحت غطاء صحيفة محلية كان تابعًا بشكل مباشر لأمير يقيم في لندن بشكل شبه دائم، يعيش في قصره المنيف الذي اشتراه من أموال الشعب المُغتصَب المسحوق.

لاقى الكتاب الجديد رواجًا جيدًا، وإن لم يكن بمستوى الكتاب الذي سلفه. لم يرق للنظام السعودي ما أورده أحمد في الكتاب الجديد، ولم تتوقف يومًا محاولات التضييق وإيقاف نشاط المركز وتشويه سمعته وسمعة العاملين فيه والقائمين عليه.

ذات يوم، وأحمد في مركزه منهمك في الإشراف على تحرير صحيفة المركز الأسبوعية، يتلقى اتصالًا من أحد العاملين في المركز، يخبره بأمر امرأة هاربة تود الحديث معه على انفراد وبشكل مستعجل. جاءت بعد دقائق، دخلت، صافحت أحمد وجلست.

- اسمي أمينة، من الحجاز، وصلت إلى هنا قبل شهرين، قرأت روايتك، لذلك جئت إليك لأتحدث معك بهذا الخصوص. الموضوع جد خطير، لا يحتمل أي تأخير، ولا بد من كشف ما يجري داخل البلد، وبالذات في قصر سعود، الأمير الذي ذكرته في روايتك.

- نعم، تفضلي، كلي آذان صاغية، ماذا لديك؟

- لا بد أن يعرف العالم الحقيقة. لقد عرفت منال وكذلك ابتسام والكثير من الفتيات اللواتي كان يحضرهن الحرس إلى قصر الأمير. هناك العشرات منهن قُتلن شنقًا في غرفة خاصة معدّة لعمليات الشنق، وكانوا يأمروننا أن ندخل إلى الغرفة من فترة إلى أخرى لننتشل جثة أو جثتين، ثم نلقي بها في شاحنة صغيرة في

الخارج لتتوجه بعد ذلك إلى خارج القصر نحو جهة مجهولة لا ندري أين. لقد عملت هناك مضطرة ومجبرة لأكثر من 13 سنة كعاملة تنظيف، وقد تمكنت من تصوير بعض الجثث، وكانت هويات الفتيات واضحة فيها، وكذلك غرفة الشنق ذاتها التي تمت فيها العمليات. مع العلم أن هناك سردابًا تحت القصر، لا ندري ماذا يجري فيه، يدخل إليه ويخرج منه عشرات الحرس يوميًا، ولم يسمح لنا بدخوله قط.

- هل الصور بحوزتك الآن؟

- نعم، تفضّل، هاهي، وأعطته الصور، وكانت صاعقة لأحمد.

شكرها أحمد وعرض عليها المساعدة، ولكنها شكرته وأخبرته أنهم قدموا لها في المركز كل ما تحتاج إليه، وهي الآن تنتظر إجراءات قبول لجوئها. قررت أن تحكي ما لديها وتنشره على مسمع ومرأى من العالم. فعرض عليها أحمد أن يعقد مؤتمراً صحفياً كبيراً لتخبر الحقيقة على البث المباشر. وافقت أمينة دون تردد. دُعي إلى المؤتمر العشرات من الصحفيين والحقوقيين والناشطين السياسيين.

ولكن أحمد رأى أن يكون ذلك بعد شهرين من الآن، حيث يكون فصل الصيف وتوافد السياح بكثرة إلى لندن، ومن ضمنهم وبشكل خاص ذاك الأمير نفسه، سعود، حيث يزور قصره في لندن كل عام في فصل الصيف، كما لديه عدة قصور في إنجلترا

وويلز وأسكتلندا، وعشرات العقارات المتنوعة بين شقق ومحلات تجارية وفنادق ومطاعم في لندن لوحدها.

حان موعد المؤتمر، امتلأت القاعة بالحضور، افتتحه أحمد، حضر قرابة الـ200 شخص، القنوات التلفزيونية موجودة، وأمينة كذلك كانت موجودة. تحدث أحمد عن سبب عقد هذا المؤتمر وعلاقته بمصير الضحايا اللواتي حكى قصصهن في روايته (جثة على الرصيف)، وقال إن بحوزته صور مرعبة تؤكد كل ما جاء في الرواية، وتثبت تورط الأمير سعود بنفسه في كل تلك الجرائم، وهو يتواجد الآن في قصره الباذخ هنا في لندن على بعد كيلومترات من مكاننا هذا. وأضاف: «ولدينا أمينة، إحدى اللواتي عملن في قصره في مدينة جدة لمدة 13 سنة، أتت لتدلي بشهادتها، وهي من قامت بتصوير كل الصور التي تشاهدونها بعد قليل».

تقدمت أمينة وتحدثت، والصور تُعرض أمام الحضور على شاشة كبيرة. الناس في صدمة وذهول، لوحظ عدد من الحضور يتوجهون إلى دورات المياه؛ تقيأوا من فظاعة الصور.

في هذه الأثناء، وصل بلاغ للأمير بالأمر، شاهد المؤتمر في قصره، حاول الهرب بسرعة قبل القبض عليه، ولكن كان تحرك الشرطة أسرع. تم اقتحام قصره في لندن والقبض عليه، وحُكم بعد 6 أشهر بالسجن المؤبد.

لقد كانت هذه المرة الأولى التي يستطيع فيها أفراد من الشعب، معظمهم من النساء، محاسبة أمير من أمراء الأسرة المالكة. كان حدثًا لا يُنسى سيخلده التاريخ، ولم ينسوه هم؛ اجتمع كبار أمراء الأسرة وقالوا بالحرف: «نريد رأس هذا الكلب!»

ظل أحمد يقوم بعمله في المركز، وأنشطته تتوسع، وخدماته التي يقدمها تزداد وتتحسن، والمستفيدون منها كذلك في ازدياد. لم يتزوج أحمد حتى تلك اللحظة، كانت ابتسام كل أحلامه، فقد ما لا يُعوَّض. لقد انتقم لها وأخذ بثأرها بعد سنين عديدة. شعر أحمد بالراحة بعد أن حقق جزءًا من العدالة في عالم تسوده المظالم والجهالة. قرر أن يأخذ إجازة لعدة أيام بعد أحداث المؤتمر.

***

استيقظ متأخرًا، ليس لديه أية انشغالات اليوم، جلس في شرفته يشرب قهوته، ويدخن سيجارًا، ويستمع لموسيقاه المفضلة، وحيدًا في منزله. ليس معه أحد، لا يريد أحدًا، يشعر بنشوة الانتقام لابتسام ولكل ضحايا ذلك الخنزير، كان في غاية الانتشاء، ظل في منزله طوال اليوم.

لم يطرق الباب أحد في ذلك اليوم سوى عامل البريد، أعطاه بريده، ثم قبل أن يغلق الباب عاد ودفعه بكل قوته وصرخ: «هذا

مصير من يتجرأ على أسياده يا ابن الكلب!» وغرس في جسده عشرين طلقة، ثم لاذ بالفرار.

كان أحمد قد أخبر كل العاملين معه ألا يتصلوا عليه إلا بعد خمسة أيام.

بعد خمسة أيام اتصلوا، لم يرد، ذهبوا إلى منزله، فوجدوه ملقى على الأرض جثة هامدة لا تتحرك.

لم يتوقف المركز بعد استشهاد أحمد، استمر ولا يزال يقض مضاجع طغاة نجد.

تمت

2026

راكاد

بنت الشغّالة

رواية

«بعد أسبوعين، أفاق أحمد من غيبوبته؛ لم يتذكر شيئًا ليومين آخرين؛ ظل يحدق في أهله ومن حوله دون أن ينطق بكلمة. أصابته صدمة، وظل لا يتحدث لأشهر لاحقة. بعد يومين، تذكر بعض الأشياء، لكنه لم يستطع أن يتحدث. طلب ورقة وقلمًا، لم يكتب سوى هذه الجملة: «أين جثة ابتسام؟» قالوا له: «لقد دُفنت». لم يكتب شيئًا بعدها، وبقي ساكتًا لأربعة أشهر قبل أن تعود له القدرة على الكلام مجددًا..»

ركان العايض

2026

alayedh.rakan